روائع الأدب العالمى للناشئين

ثلاثة رجال فى قارب

جيروم ك. جيروم



Jerome K. Jerome

ثلاثة رجال في قارب

تأليف: جيروم ك. جيروم

تبسيط: ج هورسلي

ترجمة: د. علي كامل شحاتة

مراجعة: مصطفى الصيفي

مقدمـــة

يتناول هذا الكتاب الفكاهى حكاية مغامرات ثلاثة من الأصدقاء ومعهم كلبهم ، قرروا قضاء عطلتهم فى رحلة نهرية على صفحة نهر التيمس ·

ومن الطريف أن أكثر الفكاهة فى هذا الكتـــاب تتضمنها حكايات يحكيها الأبطال عن أشياء ومواقف حدثت لهم وترتبط بصلة ما بما يقع من أحداث أثنـــاء رحلتهم · ولن تجد من السهل ـ دائما ـ معرفة أين تبدأ هذه الحكايات أو أين تنتهى · فقط عليك أن تكون على استعداد لقراءتها والاستمتاع بها ·

وقد عاش « جيروم » ـ المؤلف ـ فى الفترة من ١٨٥٩ حتى عـــام ١٩٢٧ وامتهن عدة مهن مختلفة قبل ان يحتـرف الكتـــابة ، فقـد عمــــل فى البداية كصـــراف فى (بنـك) ثم مديـرا لمدرســـة وأخيرا كممثل · وقد ظهر هذا الكتاب لأول مرة عام «١٨٨٩» . الا أن المواقف الطريفة التى يحويها يمكن أن تحدث لأى منا فى هذه الأيام · ومن أعمال مؤلفنا الشهيرة أيضا كتاب « أفكار تافهة لشخص تافه » ومســرحية « المرور بالطابق الثالث مرة أخرى » ·

الفصل الأول

التخطيط لقضـــاء العطلة

كنا ثلاثة ـ نجلس فى غرفتى ·· جورج ووليام صمويل هاريس وانا ـ ورابعنا الكلب مونتمور ينسى ·· وكنا جميعا نشعر بالتعب وقد اضطربـت أعصـــابنا فجلسنا اكثر من نصف ساعة نتشاكى ونتحدث عن مدى سوء حالتنا ·· أقصد حالتنا الصحية بالطبع ·· !

حكيت لجورج ووليام هاريس عما أحسست به من تعب حال استيقاظى هذا الصباح · بينما وصف لنـــا ويليام هاريس ما كان يشعر به من آلام حين أوى الى فراشه ليلة أمس ·· أما جورج فقد وقف بجوار المدفأة وقدم لنا عرضا تمثيليا يصف آلامه التى كان يشعر بها

طوال الليل · ان جورج كثيرا ما كان يتوهم انه مريض الا انه فى الحقيقة ـ وكما تعلمون ـ كان يتمتع بصحة جيدة لاتشوبها شائبة !

فى هذه اللحظة طرقت مسز بوبيت الباب ، وسألت ان كنا على استعداد لتناول العشاء الآن ·· فنظر كل منا للآخر وابتسمنا فى مرارة وقلنا انه ربما كان من الأفضل أن نحاول ابتلاع شىء من الطعام · واستطرد هاريس بقوله : « ان القليل من الطعام يساعد دائما فى السيطرة على المرض » ·· !

احضرت المسز بوبيت (صينية) الطعام ووضعتها على المائدة التى تحلقنا حولها وحاولنا أن نتناول شيئا من اللحم والبصل ··

وبدا لى انى مريض بالفعل . فبعد اقل من نصف ساعة زهدت الطعام ·· تصوروا بعد نصف ســـاعة فقط ! ·· وفوق هذا فلم أشعر بأدنى رغبة فى تناول أية قطعة من الجبن !! ·· المهـــم اننا ـ وبعد أداء هذا الواجب الثقيل ـ جلسنا فى استرخاء وأشعل كل منا

غليونه وبدأنا نتناقش ثانية فى موضوع سوء حالتنا الصحية !

لم يكن أى منا يعرف على وجه التحديد أية علة أصابته . الا أن الرأى الغالب هو أننا ربما كنا نعانى من الملل والارهاق نتيجة كثرة العمل · **فقال هاريس :**

– ان مانحتاج اليه هو قسط من الراحة · والاستجمام ·

وأمن جورج على كلامه قائلا :

– راحة وتغيير شامل ·· ان تغيير المناظر والجو واراحة العقل من التفكير فى العمل هو ما سيريح أعصابنا المتوترة ·

وافقت على ماقاله جورج . واقترحت أن نسافر الى مكان هادىء بعيد فى ركن ما فى العالم القديم بعيدا عن تلك الأماكن التقليدية والتى تزدحم خلال العطلات ·· بل نسافر الى مكان ما شبه منسى نستمتع فيه بالشمس والهواء العليل والهدوء بعيدا عن متناول يد عالمنا المزعج ··

فعلق هاريس على كلامي معترضا وقال : أن مكانا بهذا الوصف سيكون مكانا فظيعا ·· وأضاف : أنه يعرف مثل تلك الأماكن ، حيث يأوى الناس الى مضاجعهم بعد الغروب مباشرة ، وحيث لايمكنك الحصول على جريدة يومية ·· وان احتجت لطباق لغليونك فان عليك أن تمشى عشرة أميال قبل ان تعثر على من يبيعه لك ·

وأردف هاريس قائلا بلهجة حازمة :

ـ لا ·· اذا كنتم تنشدون الراحة والاستجمام حقا فليس هناك أفضل من رحلة بحرية ·

فاعترضت بشدة على هذه الفكرة وقلت ! ان الرحلة البحرية لاتكون مفيدة حقا الا اذا كنت ستقضى فى البحر شهرين أو أكثر ، لا أسبوعا واحدا ·· وهى فترة قصيرة ستكون عديمة النفع · فما سيحدث هو انك ستبدأ الرحلة يوم الاثنين وانت تتمنى فى قرارة نفسك الاستمتاع والترويح ·· وستقف على ظهر السفينة تلوح بكبرياء وافتخار لأصدقائك ومودعيك الواقفين على

رصيف الميناء ، ثم تشعل غليونك الكبير وتتمشى فى خيلاء على ظهر السفينة يملؤك شعور بأنك كابتن «كوك» وسير «فرانسيس دريك» «وكريستوفر كلومبوس» ·· كلهم معا في شخصية واحدة وفى وقت واحد ·

ولكن ·· وفى بداية يوم الثلاثاء ·· ستتمنى لو انك ماركبت البحر قط ، وفى الأيام الثلاثة التالية ستتمنى لو انك كنت ميتا قبل أن تقدم على مافعلت !

ثم وفى صباح السبت تبدأ صحتك فى التحسن بدرجة تسمح لك بتناول القليل من حساء اللحم والجلوس على السطح تجيب بابتسامة ضعيفة على أصحاب القلوب الرحيمة والذين سيسألونك عن صحتك ·

وفى صباح الأحد ستبدأ فى المشى وتناول الطعام · وفى يوم الاثنين ، وبينما أنت تحمل حقيبتك فى يمينك ومظلتك في يسارك وتستعد للنزول على الشاطىء ·· فى هذه اللحظة فقط ·· ستشعر أنك بدأت تستمتع برحلتك البحرية التي أوشكت على الانتهاء فعلا !

انني اذكر ان اخا زوجتي خرج في رحلة بحرية للنقاهة ، فقطع تذكرة ذهاب وعودة من لندن الى ليفربول وبالعكس بحرا . وعندما وصل الى ليفربول كان كل همه هو ان يجد من يشترى منه تذكرة العودة .. !

ورجل آخر اعرفه خرج في رحلة بحرية حول الساحل الانجليزى لمدة أسبوع ، وقبل ان تبدأ الرحلة جاءه أحد موظفى السفينة وسأله ان كان يفضل ان يدفع ثمن وجبات الطعام كل وجبة على حدة فى وقت تناولها ام يفضل ان يدفع مقدما لكل الوجبات على مدى الرحلة .

وفضل الرجل ان يدفع مقدما لأنه وجد ان الدفع مقدما اقل تكلفة . فوجبات الاسبوع كله تتكلف مجمعة جنيهين وخمسة شلنات . وتتضمن قائمة الطعام السمك مع البيض فى الافطار ، بينما يقدمون فى الغداء الذى يبدأ فى الواحدة ظهرا ، عدة اطباق للاختيار من الأطعمة الساخنة والباردة . ويبدأ العشاء فى السادسة مساء ويشمل الحساء والسمك واللحم وخاصة اللحم البقرى يتبعه قطع من لحم البط والدجاج والحلويات والجبن

والفاكهة .. ثم بعد هذا وجبة خفيفة من شرائح اللحم في العاشرة مساء .. وعندئذ وافق صديقي ولعابه يسيل على دفع الجنيهين والخمسة شلنات فقد كان أكولا يحب ما لذ وطاب من اصناف الطعام .

وحان موعد الغداء بينما كانت السفينة تقترب من « شيربنيس » .. الا ان صديقي لم يشعر أنه جوعان للدرجة التي كان يتصورها لهذا اكتفى بتناول قليل من اللحم المسلوق وبعض الفاكهة « والكريمة » ..

وعضى صديقي بعد الظهر وهو يفكر مليا في هذه الأشياء ، فتارة يبدو له أنه لم يأكل شيئا غير اللحم المسلوق والفاكهة منذ أسابيع وتارة يحلم أنه لا مفر من أن يعيش على الفاكهة والكريمة لعدة سنوات

وفي السادسة جاءه من يخبره بأن العشاء جاهز .. ولم يثر هذا التنبيه الشهي في نفسه أدنى رغبة ، الا أنه أخذ يفكر في الجنيهين والخمسة شلنات التي دفعها ثمنا لكل الوجبات فقام بصعوبة وتوجه متثــاقلا لغرفــة الطعام ..

وصادفته عند نهاية السلم رائحة نكية لأرانب مطهية بالبصل ملفوفة برائحة السمك المقلى والخضروات ·· وجلس صديقى الى مائدته وجاءه النادل وساله :

- عمت مساء ياسيدى ·· ماذا تطلب ؟

فما كان من صديقى الا أن قال :

-احملنى خارج هذا المكان بسرعة ·· !!

وبسرعة حملوه وصعدوا به الى السطح وتركوه منثنيا على (درابزين) السفينة حيث أفرغ ما فى جوفه فى البحر ·

وطوال الأيام الأربعة التالية عاش صديقى حيـاة الزاهد مكتفيا بقطعة من الخبز الجاف وقليل من الماء وفى بداية يوم السبت بدأ يشعر بتحسن طفيف فأكـل القليل من الزبد مع الخبز وشرب القليل من الشاى ، وفى يوم الاثنين ملأ معدته بحساء الدجاج · وفى يوم الثلاثاء غادر السفينة ووقف على رصيف الميناء ينظر اليها بحسرة وهى تسير مبتعدة ويقول فى نفسه :

ـ هاهي ترحل بعيدا ‥ حاملة جنيهين وخمسة شلنات ثمنا لطعامي الذى لم ولن اكله ابدا !!

ولهذا ـ ياسادتي ـ فأنا أرفض القيام برحلة بحرية ليس من أجلى انا بالطبع . فانا لم اصب مطلقا بدوار البحر ، ولكني أخشى ان يصاب به جورج ‥ ولكن جورج قال انه لا يخشى هذا الأمر هو بدوره ولكنه ينصحنا بعدم القيام بمثل تلك الرحلة لأنه يخشى على هاريس من دوار البحر ‥ فقال هاريس انه بالنسبة له شخصيا فقد كان دائما يتعجب من هؤلاء الذين يصابون بما يسمى بدوار البحر ‥ وكم تمنى ان يجربه ولو مرة واحدة ولكنه ـ للأسف !! ـ لم يصب به اطلاقا ‥

ثم اخذ يحكى لنا كيف أنه عبر المانش الى فرنسا وكيف كان البحر هائجا جدا لدرجة ان كل المسافرين رقدوا اعياء في حجراتهم بينما كان هو والقبطان الوحيدين اللذين لم يصابا بالاعياء ‥ احيانا كان هو والضابط الثاني ، وأحيانا هو وأحد البحارة ، ولكن دائما كان هناك هاريس وشخص ما آخر لم يصبهما

دوار البحر · ثم أصبح هاريس وحده المعافى بينما أصاب الاعياء كل من كان على ظهر السفينة !

أوه انه لأمر يثير الفضول والعجب ·· ذلك ان أحدا لايصيبه دوار البحر مادام كان واقفا على الشاطىء !!

المهم ·· انتهى الأمر الى أن قال جورج :

ـ دعونا نذهب في رحلة نهرية ·

وأضاف اننا سنستمتع بالهواء الطلق والرياضة البدنية بالاضافة للهدوء والراحة النفسية ، كما أن كثرة المناظر الجميلة المتغيرة التى سنمر عليها ستريح عقولنا وتنعشها وسيجعلنا المجهود البدنى نأكل بشهية وننام باستغراق ··

وعقب هاريس بقوله أنه لا يعتقد ان جورج يحتاج لشيء يجعله ينام أكثر مما ينام بالفعل والا وصل الأمر لحد الخطورة ، خاصة وأن اليوم لايزيد على أربع وعشرين ساعة ، وعلى أية حال لو أنه نام اكثر مما

ينام الأن فانه يكون كالميت مما سيوفر تكاليف اعاشته ومؤونته ..

وقال هاريس فى النهاية أن الرحلة النهرية تناسبه تماما ، كما أنها تناسبني أيضا .. وامتدحنـــا فكرة جورج النيرة بلهجة بدا منها اندهاشنا لورود مثل تلك الفكرة على عقل جورج ..

الوحيد الذى لم تعجبه الفكرة هو «مونتمور ينسى» وبدا وكأن لسان حاله يقول لنا :

ـ ان كل شىء على مايرام بالنسبة لكم أما انا ، فلا يعجبنى الأمر برمته ، فأنـــا لايهمنى تغيير المنظر ولا الهواء العليل كما انى لا ادخن ، واذا قدر لى أن أرى فأرا فانكم لن تسمحوا لى بمطاردته ، وان غلبنى النوم مرة فانكم قد تلقون بى فى النهر بسبب حركتكم فى القارب ، ولهذا ياسادة .. ان سألتمونى فسأجيب بأن الأمر كله .. حماقة .. !!

لكننا على اية حال كنا ثلاثة مقابل واحد وبهذا تمت الموافقة على فكرة جورج ..

الفصل الثانى

التخطيط لقضاء العطلة (٢)

فحصنا الخرائط وبدأنا نتناقش برامجنا لقضـاء لعطلة .. فى البداية حددنا موعد الانطلاق . وقررنا ن يكون صباح السبت القادم ، كما قررنا أن تبدأ الرحلة ن كنستون التى سنذهب اليها أنا وهاريس لنأخذ منها لقارب الى « تشيرتسى » حيث ينضم الينا جورج الذى ن يتمكن من مغادرة المدينة قبل العصر ، فجورج يذهب لنوم ـ أقصد العمل ! ـ فى البنك من الساعة العاشرة صباحا وحتى الرابعة من بعد الظهر ، فيما عدا يوم السبت الذى يوقظونه فيه فى الثانية ويلقون به الى لخارج .

وبعد تحديد زمان ومكان ابتداء الرحلة ظهر لنـــا سؤال هام ..

ترى هل نعسكر فى الخلاء أم نبيت كل ليلة من ليالى الرحلة فى الفنادق ؟ . وقد حبذنا انا وجورج ـ فكرة أن نعسكر فى الخلاء حيث الحرية والطبيعة البرية .

ففى الخلاء وعند الغروب ، تنسحب خيوط الشمس الذهبية ببطء الى قلب غلالات السحب الحزينة بينما تتوقف الطيور الصداحة عن الغناء وكأنها جمـــع من الأطفال كسيرى القلوب ..

ومن قلب الغابات الداكنة على ضـــفتى النهر ، يخرج جيش الليل وتزحف الأشباح الرمادية فى صمت وتسير بأقدام خفية فوق حشائش النهر الراقصة . بينما يرتدى الليل تاجه السحرى وينشر أجنحته السوداء فوق العالم المظلم . ومن قصره السحرى الذى تضيؤه النجوم المتلألئة يحكم العالم .

عندئذ ، ننساب بقاربنا الصغير الى بقعة هادئة وننصب خيمتنا ونجهز عشـــاءنا .. وبعد أن نتناول

العشاء ، نجلس فى استرخاء ويشعل كل منا غليونه ونتجاذب أطراف الحديث فى سعادة · بينما النهر فى لحظات صمتنا ·· يلعب حول قاربنا الصغير ويهمس بحكايات غريبة وقديمة أو يغنى بصوت حالم اغنيته الأزلية الأبدية ·

هكذا وبينما ينحنى القمر ويطبع قبلة اخوية على خد النهر ويحضنه بأذرعه الفضية ، نراقب نحن النهر وهو يسير فى رحلته الأبدية يغنى اغنيته الخالدة حتى يمثل بين يدى مليكه البحر ··

ونبقى على هذه الحـال حتى تتلاشـى أصـواتنا وتنطفىء الغلايين ويملؤنا ـ نحن الشـباب الثلاثـة العاديين جدا ـ شعور غريب بأفكار نصف حزينة ·· نصف جميلة ·· ثم لا نعود الى الاهتمام بالكلام ·· ثم نضحك قليلا ·

وينفض كل منا رماد غليونه ويقول لزميليه :

ـ تصبحان على خير !!

بعدها نروح فى نوم جميل تطل علينا نجوم السماء

اللامعة ، ونحلم ·· نحلم بأن العالم قد عاد طفلا ·· بكرا من جديد !

هكذا تخيلنا معسكرنا فى الخلاء أنا وجورج ولكن هاريس سألنا :

ـ وماذا سنفعل لو أن السماء أمطرت ؟

أوه ·· انه لمن المستحيل أن تثير قلب هاريس وعقله ، انه لايحمل فى نفسه ادنى قدر من الشاعرية · ولو حدث ورأيت عينيه ذات مرة تفيضان بالدمع ، فاعلم أنه قد أكل لتوه بصلة نيئة ·

ولكن ، وعلى أية حال كانت ملاحظته فى محلها ـ من وجهة النظر العملية على الأقل ـ فمعسكر فى الخلاء تحت المطر لن يكون بالشىء المبهج أو الذى يبعث على الارتياح ·

فتخيلوا ، الوقت مساء وأنتم مبتلون والماء يرتفع داخل القارب لمسافة بوصتين وكل شىء حولكم غارق فى الماء · وبعد جهد تعثرون على مكان ما على ضفة النهر ليس موحلا بنفس درجة غيره من الأماكن ،

فترسون عنده ، وتخرجون خيمتكم ويبدأ اثنان منكم في نصبها ·

ستجدون الخيمة مبتلة وثقيلة فتشدكما الى أسفل وتلتف حول راسيكما وتصبكم جميعا بالحنق والضيق، بينما المطر ينهمر بلا انقطاع ·· ان عملية نصب الخيمة عملية صعبة حتى فى الجو الجاف ولكنها تتحول الى مهمة مستحيلة على أى انسان فى مثل هذا الطقس ·· وبعد قليل تكتشف أن زميلك بدلا من أن يساعدك ، يلعب معك لعبة الحمقى ، فلا تكاد تثبت الخيمة من ناحيتك حتى يجذب هو بشدة من ناحيته فينزعها **فتصـــرخ فى غضب قائلا :**

ـ هيه ماذا تفعل ؟ !

فيرد عليك هو :

ـ ماذا تفعل أنت ؟ ارخ الطرف الذى ناحيتك ·· أوه لا تستطيع هذا ؟ !

فتصيح فيه :

ـ لاتجذب ·· انك تجذبها خطأ أيها الأحمق !

فيرد عليك :

ـ لا ‥ أنا لا اجذبها خطأ

ويشد بقوة اكبر **وهو يصيح :**

ـ ارخ أنت الطرف الذى عندك !

فتزمجر قائلا :

ـ انني اقول لك أنك تجذبها خطأ !

ثم تجذب أنت جذبة قوية تنزع بها كل جوانب الخيمة من ناحيته فتسمعه يزمجر **ويقول لنفسه :**

ـ أوه ، يالهذا الحمار !

ويجذب هو جذبة قوية تنزعها من ناحيتك تماما ، وفى الحال تبدأ فى الدوران لتذهب اليه وتخبره برأيكفيه وفى عمله فى نفس الوقت الذى بدأ هو فيه بالدوران فى نفس الاتجاه ليشرح لك وجهة نظره ومن ثم يتبع كل منكما الآخر وتأخذان فى الدوران فى دائرة مغلقة ، وبينما كل منكما يزداد غضبا وسخطا تسقط الخيمة فى الوحل ‧

واخيرا وبطريقة او بأخرى تنصبون الخيمة وتبدأون فى انزال أشياءكم الى الشاطىء وبالطبع تفشل كل محاولاتكم فى الابقاء على خشب التدفئة صالحاللاشتعال .. ومن ثم لايكون امامكم الا اشعال الموقد والجلوس حوله طلبا للدفء !

أما العشاء ، فستجدونه يتألف أساسا من .. ماء المطر ! .. نعم ماء المطر ! فالخبز مشبع بالماء وشرائح اللحم غنية به والمربى والزبد والملح والقهوة وكل شىء .. كل شىء ممزوج بماء المطر وقد تحول الى نوع ما من (الشوربة) .. !

وبعد العشاء لن تستطيعوا التدخين ، فالطباق مندى ولايصلح للاشتعال . وأخيرا وعندما تذهبون للنوم ، ستحلم أن فيلا ضخما قد جلس فجأة فوق صدرك ، أو أن بركانا رهيبا مثل « فيزوف » قد انفجر والقى بك الى قاع البحر بينما الفيل لايزال جاثما على صدرك بكل هدوء ودعة . فتصحو مفزوعا يملؤك شعور بأن شيئا مروعا قد حدث ، بل تلح عليك فكرة أن يوم القيامة قد حل موعده وقامت القيامة فعلا !

ولكن سرعان ماتعرف ان هذا لم يحدث وأن ماحدث هو أنه قد مر عليك وأنت نائم جماعات من اللصوص والسفاحين أو اية مصيبة أخرى ، المهم وهذا كل ما ستعرفه هو أن آلافا من الناس قد مروا عليك وركلوك بأقدامهم وأنك لاتستطيع التنفس من شدة الألم ..

هناك شخص آخر يعاني من مشكلة هو الآخر ، وأنينه الضعيف يأتيك من تحت فراشك . وعاقدا العزم — بعد كل هذه الأحداث — على الدفاع عن حياتك فانك ستأخذ فى الحركة المتشنجة دافعا برجليك وقدميك فى كل اتجاه تصرخ بكل ما أوتيت من قوة . أخيرا يتحرك شيء ما مفرجا عنك فتشعر برأسك وقد خرجت ثانية للهواء الطلق وقريبا منك سترى قاتلك وقد قبع نصف عار فى انتظار أن يجهز عليك وتشرع فى الاستعداد لمعركة حياة أو موت . وفجأة .. تكتشف أنه لم يكن سوى جيم !

ويصبح هو مندهشا وقد تعرف عليك فى نفس اللحظة :

— أوه ، أهو أنت ؟

فتجيبه وأنت تفرك عينيك !

ـ أجل ؟ ماذا حدث ؟!

ـ يبدو أن الخيمة قد انهارت فوقنا ـ على ما أعتقد ولكن اين بيل ؟

وترفعان عقيرتيكما سويا بالنداء على بيل فتشعر بالأرض تهتز تحتك والصوت الضعيف الذى كنت قد سمعته من قبل يصرخ من تحت الاغطية :

ـ انهض من فوق رأسى · الا تريد أن تتحرك ؟

ثم يضطرب جسد « بيل » فى تشنج عنيف ويخرج من تحتك شخص منهار وقد غطاه الطين ويصيح معتقدا أن كل ماحدث كان مدبرا ··

فى الصباح التالى ، ستصبحون غير قادرين على الكلام نتيجة لنزلة البرد التى أصبتم بها فى الليلة السابقة · كما أنكم ستشعرون جميعا بالضيق من بعضكم البعض وسيتكلم كل منكم مع زميله فى غضب واضح ولكن بهمس مؤلم ـ نتيجة مرض الحنجرة ـ طوال وقت تناولكم الافطار ·

من أجل كل هذا فقد قررنا أن ننام فى الخلاء ان كان طقس الأمسية جميلا وأن نذهب لنبيت فى نزل ان كان الطقس عكس ذلك أو ان كنا نرغـــب فى بعض التغيير ·

وقد رحب مونتمورينسى بهذا الرأى الذى انتهينا اليه بشكل واضح · انه لايحب ان يبقى هادئا أو وحيدا انه يفضل أن تكون الحياة صاخبة · انك ان نظرت الى وجـــه مونتمورينسى فسيملؤك احســـاس بأنـــه روح سماوية تجسدت فى جسد كلب صغير ، لدرجة أن وجهه البرىء عادة ما كان يستثير الدموع من عيون السيدات العجائز والرجال المتدينين ·

ولكن برغم كل هذا ، فانا لم أستغرق وقتا طويلا لأكتشف فداحة الخطأ الذى كانوا يقعون فيهفىفكرتهمعن هذا الكلب الصغير · فذات مرة كان على أن أدفع ثمن دستة من الدجاج قتلها هذا الكلب البرىء النظرات وكثيرا ما كان على أن أجذبه بقوة من رقبته ورجلـــه لأستخلصه من معاركه العنيفة من كلاب الشارع ·· بل ان عندى قطة ميتة احضرتها الى احدى العائلات وهى



لقد تكلمنا بما فيه الكفاية

تصب على اللعنات وتصفنى بأنى قاتل وفى مرة اخرى مثلت امام المحكمة فى دعوى رفعها على جارى لعـدم استطاعتى السيطرة على كلبى الشــرس الذى حبس جارى فى (عشة الفراخ) على مدى اكثر من ساعتين فى احدى الأمسيات الباردة · وبعد كل هذا بدأت أعيد النظر فى الفكرة التى تقول أن مونتمورينسى قد منح روحا سماوية من الجنة !

وبعد الاتفاق على طريقة وأماكن النوم اثناء الرحلة لم يعد أمامنا سوى أن نناقش سويا قائمة الأشياء التى يجب علينا أن نحملها معنا فى رحلتنا ·· ولكننا ما أن بدأنا نتجادل فى هذا الأمر حتى بادرنا هاريس بقوله أننا قد تكلمنا بما فيه الكفاية فى ليلة واحدة وأن مشكلتنا الجديدة يمكنها أن تنتظر حتى الليلة القادمة ··

الفصل الثالث

دراسة احتياجات الرحلة

والتقينا في المساء التالى لنتابع حوارنا حول برنامج رحلتنا ، **في البداية قال هاريس :**

– والآن يجب أن نتفق أولا على ما سنأخذه معنا من مؤن ومستلزمات ومعدات · وعلى هذا أقتـــرح أن تحضر ورقة لندون بها الأشياء يا (جى) ، ولتلق أنت نظرة على ما بالخزانـــة من مواد البقـــالة ياجورج · وليحضر لى أحدكم قلما وساضع أنا قائمة بما سنأخذه معنا ·

هكذا هو دائما · ان هاريس على استعداد دائـــم

لتحمل تبعة كل شيء ، ثــــم ·· القائه على كاهـــــل الآخرين · ·

وهو فى هذا يذكرنى بعمي « بودجر » ، فعندما يتطوع عمي بودجر للقيام بعمل ما يكون المرادف هو الكثير من الاضطراب واللخبطة ··

فى يوم من الأيام جاءتنا لوحة من عند صـــانع الاطارات بعد أن صنع لها اطارا جميلا ووضعناها فى حجرة الطعام على الأرض فى انتظار من يعلقها على الحائط · وعندما تساءلت العمة ماريا عما يجب أن نفعل لنعلقها على الحائط اسرع العم بودجرقائلا :

ــ اوه ، أتركي لى هذا الأمر ، لاتشغلى بالك على الاطلاق · سأقوم انا بهذا العمل ··

ثم خلع معطفه وشرع فى العمل · فارسل الفتاة للخارج لاحضار بعض المسامير ، ثم ارسل أحد الأولاد خلفها ليخبرها عن حجم المسامير التى يجب احضارها وهكذا وتدريجيا ألقى عمي بتعليماته وأوامره لكل من بالبيت ليقوم كل منهم بعمل شـــىء ما ·· وبعد هنيهة صاح :

ـ والآن ناولنى أنت « الشاكوش » ·· حسنا · وانت ناولنى (المسطرة) ياتوم ، ايضا ساحتاج لكرسى المطبخ ·· اما أنت ياجيم فاسرع الى السيد « جوجلز » واطلب منه ان يعيرنا سلمه الخشبى · أوه ، لا تبتعدى عنى ياماريا لأننى ساحتاج لمن يمسك لى المصباح ·

واستمر عمى فى صياحه قائلا :

ـ عندما تعود الفتاة من الخارج بالمسامير ، عليها أن تخرج ثانية لاحضار سلك يصلح لتعليق اللوحة . اما توم ·· اين توم ؟ ·· توم ! تعال هنا . ساحتاجك لترفع معى اللوحة ·

وهنا ترك عمى اللوحة من يده فسقطت وخرجت الصورة عن الاطار وحاول عمى انقاذ الزجاج فجرحت يده . فأخذ يثب فى الغرفة فى كل اتجــــاه باحثا عن منديله . وبالطبع لم يجد المنديل لأنه كان فى جيب معطفه الذى خلعه منذ دقائق ·

وهكذا كان على كل من بالبيت أن يتركوا ما بأيديهم

ليتفرغوا للبحث عن معطف عمى الذى اختفـــى وفى جيبه المنديل !

هذا بينما كان عمى يثب فى كل مكان صائحا موبخا كل من بالبيت قائلا بصبر نافد :

الا يوجد انسان واحـد فى هذا البيت يعرف أين وضعت معطفى ؟ آه ياربى اننى لم أر فى حياتى قوما كهؤلاء ! ستة افراد ولاتستطيعون العثور على مجـرد معطف ! ٠٠ أوه لقد خلعته من خمس دقائق فقط ٠

ثم نهض واقفا ليجد أنه كان جالسا على معطفــه فصاح.:

ـ أوه ! يمكنكم التوقف عن البحث . لقد وجدته ـ أنا بنفسى ـ أوه ٠٠ لقد كنت كمن يطلب من القط البحث عن أشيائه عندما طلبت منكـــم العثور على معطفى !

وبعد أن قضى نصف ساعة فى ربط وتضميد اصبعه المجروح . وبعد أن جىء بزجاج جديد للاطار وتـــم

احضار الأدوات والسلم والكرسى والشمعة ، شـرع عمى فى محاولة أخرى بينما وقفت العائلة بكامل هيئتها على شكل نصف دائرة حوله فى حالة الاستعداد القصوى لتقديم العون عندما يطلب منها .

فكان على اثنين منا الامساك بالكرسـى وعلى الثالث أن يمسك بعمى فوق الكرسى ويساعده ، أما الرابع فعليه أن يناوله المسمار وعلى الخامس أن يناوله (الشاكوش) ..

وهم عمى بالعمل ، فأمسك بالمسمار ولكنه سـقط من بين أصابعه فقال عمى فى ضيق :

ـ أوه هكذا ! ماكان ينقصنا سوى ضياع المسمار !

وبالطبع كان على الجميع أن ينحنوا على الأرض بحثا عن المسمار بينما وقف العم « بودجر » فـوق الكرسى متسائلا ان كان عليه أن يقضى كل الليل واقفا هكذا فى انتظار المسمار !

وأخيرا تم العثور على المسمار وفى نفس اللحظة اضاع عمى (الشاكوش) فأخذ يصيح :

ـ أين المطرقة ؟ ماذا صنعت بالمطرقة ؟ باللسماء ستة أفراد تقفون هكذا بغباء ولا تعرفون أين وضعت المطرقة ؟ !

أخيرا وجدنا مطرقة عمى ، ولكنه كان قد افتقد مكان العلامة التى وضعها على الحائط حيث يجب أن يثبت المسمار ، ومرة أخرى كان على كل منا أن يبحث عن مكان العلامة فكنا نصعد واحدا واحدا بالدور فوق الكرسى ونحملق فى الحائط بحثا عن العلامة . وبالطبع كان كل منا يعثر على مكان مختلف للعلامة وكان عمى يصيح فى وجه كل منا متهما اياه بالغباء وآمرا اياه بالنزول فورا من فوق الكرسى .

ثم أخذ عمى المسطرة وأعاد القياس مرة اخرى ووجد أن بقعة التثبيت يجب أن تكون على بعد يساوى نصف المسافة التى تساوى واحدا وثلاثين بوصة وثلاثة أثمان البوصة من زاوية الحائط ، وحاول عمى حساب هذه المسافة فى رأسه وكذلك فعلنا جميعا . ثم انتابتنا جميعا موجة من الضحك السافر ـ لم نظهرها بالطبع

وفى خضم هذه (اللخبطة) نسينا الرقم الأصلى ، وكان على العم بودجر أن يعيد القياس من جديد

هذه المرة استعمل عمى أنشوطة صغيرة ، وبينما هو ينحنى من فوق المقعد بزاوية مقدارها خمس وأربعين درجة محاولا الوصول لنقطة تبعد ثلاث بوصات عن اقصى مايستطيع ان يصل اليه سقطت الانشوطة من يده ووقع عمى فسقط فوق البيانو محدثا موسيقى حـــادة ودويا هائلا !

اخيرا استطاع العم بودجر تحديد بقعة التثبيت ، ووضع رأس المسمار عليها بيده اليسرى ، وأخذ المطرقة بيده اليمنى ، وعند أول طرقة طرقت المطرقة على ابهامه فقذف بها وهو يصرخ من الألم ، فسقطت على أصابع قدم أحد الواقفين ..

وبهدوء شديد أبدت العمة ماريا ملاحظة هـــامة لعمى بودجر وهى أن عليه أن يخبرها فى المرة القادمة ان هو أراد القيام بعمل مافى البيت حتى تتركه لـــه أسبوعا تقضيه عند أمها .

على اية حال ، حاول عمى محاولة ثانية ، وفى الطرقة الثانية اخترق المسمار دهان الحائط واندفعت المطرقة خلفه بينما القى بالعم بودجر فى اتجاه الحائط باندفاع كان كافيا لسحق انفه ..

وكان علينا للمرة الألـــف أن نحضر المســـطرة والأنشوطة لكى يصنع العم بودجر ثقبا جديدا . وعند منتصف الليل تقريبا تم تعليق اللوحة ولكنها ـ للأسف لم توضع فى مكانها الصحيح ولا كانت مثبتة جيدا . بينما بدا الحائط حولها ـ لمسافة ياردات ـ وكأنه كشط بشوكة الحديقة .

وارتسمت نظرات الحزن على وجه الجميع عدا العم بودجر الذى بدا فخورا بما صنع **وقال فى اختيال وتباه .**

ـ هاهى اللوحة فى مكانهـــا . ان بعض الناس يستأجرون عمالا ليقوموا بأعمال صغيرة كهذه .

ان صديقنا هاريس سيصبح من ذلك النـــوع من الرجال مثل عمى ، وقد اخبرته ذات مرة برأيى هذا . ولهذا قلت أننى لا استطيع ان اتركه يتحمل عبء العمل

كله وحده ، لهذا فسأقوم أنا بمهمة الاشراف على العمل بالكامل ويكفي ان يقوم هو باحضار الورقة والقلم والقاء نظرة على ما بالخزانة من بقالة بينما يقوم جورج بتدوين ما سنمليه عليه ..

وبدأنا فى تدوين القائمة ، ولكن كان علينا ان نمزق القائمة الأولى بعد أن أتممناها ، ثم القيناها فى سلة المهملات ، لأننا اكتشفنا أن نهر التيمس لا يتسع لمركب بالحجم الذى يسمح بحمل كل ماتضمنته القائمة وكنا نعتبره من الأساسيات .

وبعد أن مزقنا القائمة أخذنا نتبادل النظرات حتى قال جورج :

ـ أوتدرون ؟ .. لقد كنا نسير فى الاتجاه الخاطىء اننا لايجب أن نفكر فيما نستطيع ان نأخذه معنا بل فيما لا يمكننا الاستغناء عنه .

ان جورج يصبح فى أحيان كثيرة رزينا ومعقولا . كانت ملاحظته مملوءة بالحكمة ، ليس فقط فيما يخص هذه الحالة ، بل انها تمد ظلال حكمتها على كل مايجب

أن نفعله طوال ابحارنا فى نهر الحيـــاة ·· فكثير من الناس عندما يسـافرون بالمراكب يحملون معهـــم من الأمتعة مايمكن أن يتسبب فى اغراق المركب ، بسبب أمتعة غير مهمة ولا داعى لحملها اطلاقا ·· دع قارب حياتك يســـير خفيفا محملا فقط بما تحتاجه بالفعل ، مثل بيت متواضع به بعض الامتعة البسيطة وصديق أو صديقان يكونان صديقين بمعنى الكلمة · ثم انسان تحبه ويحبك ، وقطة أو كلب صغير ·· غليون أو اثنان اذا كنت من المدخنين ـ ومايكفيك لتأكل وتشرب ·· وبهذا ستجد أن قاربك أصبح سهل القيادة وستجد وقتا للعمل ووقتا لتنهل من شمس الحياة الدافئة ·

تركنا القائمة ليضعها جورج الذى بدأ بقوله :

ـ لن نأخذ خيمة فالقارب الذى سنأخذه له غطاء من القماش وهو ابسط من الخيمة وأكثر راحة ورفاهية ·

وقد بدت فكرة معقولة فوافقنا عليها · وقال جورج فى هذه الحالة فسنأخذ غطاء لكل منا ، ومصـــباحا وبعض الصابون ، فرشاة ومشـــطا واحدا لنا ثلاثتنا

وفرشاة أســـنان لكل منـــا ، وبعض أدوات الحلاقـــة ومنشفتين كبيرتين للحمام ·· كنا نتكلم وكأننا سنسبح فى النهر صباح كل يوم · فقد كان جورج يقول أنه من الممتع حقا ان نستيقظ مبكرين فى الصباح ونأخـــذ غطسا فى ماء النهر الرائق المنعش ·· وقال هاريس أنه لايوجد اجمل من السباحة قبل الافطار حتى تشعر بالجوع وتقبل على طعام الافطار بنهم ·· وقد علق جورج على هذا بقوله أنه اذا كانت السباحة فى النهر ستـــجعل هاريس ياكل أكثر مما ياكل الآن ، فانه سيعترض على نزوله الماء بكل قوته · وفى النهاية اتفقنا على أن نأخذ معنا ثلاث مناشف واحدة لكل منا حتى لا يقف أحدنا فى انتظار الآخر !

أما بالنسبة للمـــلابس ، فقد قال جورج أن سترتين وسروالين سيكونان كافيين ، حيث أنه يمكننا أن نغسل ملابسنا فى ماء النهر ان هى اتسخت ·· ولـــم يكن خيالى أو خيال جورج قويا لدرجة تستوعب كلام جورج فكيف يتسنى لثلاثة رجال محترمين لايعرفون شيئا عن الغسيل أن يغسلوا ملابسهم ·· وأين ؟ ·· فى مياه نهر التيمس ! ·· وبقطعة صغيرة من الصابون ! ·· وكان

قدرنا أن نعلم بعد أســـــابيع قليلة وبعد ان فـــات الأوان · ان جورج نفســــــه كان يعلم القليل عن هذا الموضوع · اذا تسنى لك ان ترى هذه الملابس بعد هذا · ولكن على اية حال فان هذا الكلام يسبق الأحداث ·

نصحنا جورج أن ناخذ معنـــا الكثير من الملابس الداخلية والجوارب ، وايضا الكثير من المناديل حيث انها ستكون مفيدة فى تغليف الأشياء وزوجا من الأحذية الجلدية ذات الرقبة بالاضافة لأحذية القارب حيث اننا قد نحتاجها اذا شعرنا بضيق أو ملــــل من احذيـــة القارب !

الفصل الرابع

مشاكل الطعام وتحزيم الأمتعة

وبدأنا نناقش مسألة الطعام . فقال جورج :

ـ نبدأ باحتياجات وجبة الافطـــار (هكذا جورج دائما ، عملى ومنظم) . سنحتاج لقلاة و . . .

لكن هاريس قاطعه قائلا أن الطعام المقلى يسبب اضطربات معوية . ولكننا نهرناه وطلبنا منه ألا يكون غبيا . وتابع جورج كلامه قائلا بنبرة جادة ذات مغزى :

ـ لن نأخذ معنا كيروسين .

وفى الحال وافقنا أنا وهاريس على هذه الملاحظة

فكل منا له ذكريات اليمة مع الكيروسين · فقد اخذنا معنا ذات مرة ـ لن نكررها ابدا ـ لقضاء عطلة كانت من أعجب واسوأ العطلات التى قضيناها · كنا وكاننا نحيا داخل مستودع للوقود لمدة أسبوع · فقد تخلـــل الكيروســـين كل شيء حولنـا ، وهاكـم الحكاية بالتفصيل ·

بدانا رحلتنا بعد أن وضعنا اوعية الكيروسين فى مقدمة القارب ، ومنها انساب الى المؤخرة ناشرا رائحته الكريهة فى كل أنحاء ومحتويات القارب حتى افســد كل شيء حولنا ·· الطبيعة ·· الطقس ·· الهواء كل شيء ، كانت تهب علينا ـ احيانا ـ رياح بترولية غربية، واحيانا أخرى بترولية شرقية ، ومرة بترولية شمالية وربما بترولية جنوبية · من اين اتت الرياح ، من ثلوج القطب الشمالى أم من صحراء افريقيا كانت تأتينا معبأة برائحة الكيروسين !

حاولنا التخلص من هذا العذاب فتركنا القارب عند مدينة « مارلو » وتمشينا خلال شوارع المدينة لنفلت من هذه الرائحة ، ولكنها تبعتنا فامتلأت المدينة باكملهـا

برائحة البترول ·· ومررنا فى سيرنا بفناء الكنيســة حيث توجد المقابر . فخيل الينا أن الموتى قد دفنوا فى آبار البترول ·

تمشينا فى شارع المدينة الرئيسى فوجدنا هواءه مشبعا برائحة الكيروسين . وأخذنا نتعجب من سـكان تلك المدينة . كيف يطيقون العيش فى مثل هذا الجو ؟! وسرنا أميالا فى اتجاه برمنجهام . ولكن جهدنا ضاع سدى . فحتى الريف وجدناه غارقا فى البترول !

ولكل ماتقدم كان قرارنا الحكيم هو أن يحتل الموقد الكحولى المكـــانة الأولى · والا مكان معنا للموقـــد الكيروسينى ·

واقترح جورج ـ كطعام للافطار ـ أن نأخذ بعض البيض . حيث انه سهل الاعداد . بالاضافة للحم البارد والشاى والخبز والزبد والمربى ولكن ·· لاجبن · فالجبن كالكيروسين يترك بصمته على كل شىء . انه يتخلل سلة الطعام فيسبح على كل مابها طعم الجبن ونكهته حتى انك

لاتستطيع أن تعرف أى نوع من الطعام تأكل من فرط امتزاجه بطعم الجبن ·

اننى أذكر صديقا لى اشترى قطعتين من الجبن من « ليفربول » وكانتا ناضجتين نضوجا رائعا بحيث أن رائحة الجبن يمكن أن تصطدم بأنفك وأنت على بعد مائتى خطوة منها ·

وكنـــــت فى ليفربول فى ذلك الحين ، فطلب منى صديقى أن أحمل قطعتى الجبن هاتين معى عند عودتى الى لندن ، حيث أنه مضطر للبقاء فى ليفربول ليومين آخرين وهو يعتقد أن الجبن لا يتحمل الحفظ خـــارج ثلاجة أكثر من هذا · فأجبته لطلبه قائلا :

ـ أوه ، بكل سرور ياصديقى العزيز ·

وأخذت الجبن معى وركبت عربة أجرة (حنطور) يجرها حصان عجوز مريض ووضعت الجبن فوق العربة وبدأنا السير ببطء ولكن ما أن انعطفنا عند ناصـــية الشارع حتى حملت الرياح رائحـــة الجبن الى أنـــف الحصان العجوز ، فلدغته فى أنفه ، ومع صيحة رعب

اندفع الحصان العجوز يجرى بكل قوته ، حتى ان الأمر استدعى الاستعانة باثنين من عمال السكة الحديدية ـ بالاضافة للسائق ـ لكبح جماح الحصـــــان المرعوب وايقافه عند باب المحطة !!

والحقيقة ـ هذا ما اعتقده ـ انه ماكان بامكان احد أن يسيطر على جنون هذا الحصان المسكين لولا أن هدى الله رجلا ذكيا فوضع منديلا على انف الحصان واشعل أمامه بعض الورق !

اخذت تذكرتى وجعلت أسير متبخترا على رصيف المحطة حاملا الجبن الفواح · بينما يفسح لى النــاس الطريق مبتعدين عنى فى احترام شديد !

كان القطار مزدحما واضطررت للركوب فى ديوان به سبعة ركاب آخرين · وقد اعترض على دخولى رجل عجوز ذو مزاج حاد ـ يبدو أنه من علية القوم ـ لكنى دخلت رغما عنه ووضعت مامعى من جبن تحت المقعـد وجلست وعلى وجهى ابتسامة رضاء بريئة وانا اقول :

ـ أوه ، كم كان يوما حارا !

ومرت بضع دقائق بعدها بدأ الرجل العجوز يتململ في مقعده ويقول :

ـ انها قريبة جدا من هنا !

ورد عليه الجالس بجواره :

ـ أوه وكريهة جدا !

ثم بدأ كل منهما يلتقط أنفاسا حذره ضيقة ، وفي الشهيق الثالث أصابهما سهم الرائحة في صدريهما ، فقاما دون أن ينبسا بحرف ، ثم غادرا المكان .. وبعدهما قامت سيدة بدينة ولملمت حقيبتها مع ثمـــانية طرود وغادرت الديوان . بينما مكث بقية المسافرين في أماكنهم لبعض الوقت وفجأة ! .. اندفع ثلاثة منهم نحو الباب في وقت واحد فجرحوا بعضهم البعض في تسابقهم في الخروج ..

ابتسمت للمسافر الوحيد الذي بقي في العربة وقلت لــه :

ـ يبدو أننا سنستمتع بالسفر وحدنا دون زحام !

فضحك وقال :

ـ ان بعض الناس يمكن مضايقتهم بسهولة ٠

ولكن مالبث رفيق سفرى ـ وبعد أن بدأ القطار يتحرك ـ أن ظهرت على وجهه علامات الحزن والضيق ولهذا ـ وكتلطف منى ـ دعوته لكأس فى غرفة الطعام ، فوافق على الفور ، وعندما كنا نسير فى طريقنا لغرفة الاستراحة توقف وطلب منى شلنين ـ ثمن كأس الويسكى ـ وذهب وتناولها بمفرده ثم دلف لعربة أخرى بسرعة ٠

لدى وصولى الى لندن حملت الجبن الى منزل صديقى ٠ وعندما دخلت استقبلتنى زوجته وهى تشمم الهواء حولها ثم سألتنى :

ـ ماهذا ؟ !

فقلت :

ـ انه جبن اشتراه (توم) من ليفربول وطلب منى أن أحضره وأقدمه لك ياسيدتى !

وتأخر صديقى فى ليفربول أكثر مما كان يتوقع ٠

وعندما مرت ثلاثة أيام دون أن يحضر اتصلت بى زوجته تليفونيا وقالت :

ـ ماذا قال توم بخصوص هذا الجبن ؟

فقلت :

ـ انه نصح بوضع الجبن فى مكان رطب وطلب الا يمسه أحد ٠

فردت فى عصبية :

ـ لا أحد يحب أن يقترب منه ٠ ألم يشم رائحته ؟!

فقلت بهدوء :

ـ أعتقد أنه فعل ٠ وقد بدا مولعا بها تماما !

فسألتنى بصوت ودود :

ـ هل تعتقد أنه ربما يتضايق ان أنا أعطيت رجلا ما جنيها أو جنيهين ليحمل هذا الجبن ويدفنه بعيدا ٠

فقلت محذرا :

ـ انه لن يعرف البسمة فى حياته بعد هذا ٠

وبعد لحظة صـــمت ، وكأن فكـــرة رائعة ارتطمت براسها **وصاحت زوجة صديقى فى ابتهاج :**

ـ هل تمانع فى الاحتفاظ بهذا الجبن عندك لأجل توم . سوف ارسله لك على الفور .

ولكنى رجوتها قائلا :

ـ سيدتى العزيزة ، اننى حقا أحب الجبن ولسوف أظل أنظر لرحلتى معه من ليفربول الى لندن على أنها كانت نهاية سعيدة لعطلة ممتعة . ولكن فى عالمنا هذا ، يجب على المرء أن ينظر بعين الاعتبار لأذواق الآخرين والسيدة التى اسكن تحت سقف بيتها أرملة وهى لا تحب أن يفرض عليها احد شيئا لا تريده أو كما تسميه هى (ضد ارادتها) . ووجود الجبن الخاص بزوجك فى بيتها سيندرج تحت هذا الاسم بالتأكيد .. وأنا لا أحب ان يقال عنى انى أكرهت ارملة وأطفالا يتامى على تحمل امر (ضد ارادتهم) ..

فقالت :

ـ حسن اذن ، ان كل مايمكننى عمله الآن هو ان

أخذ أطفالى ونذهب لنقيم فى فندق حتى ياتى توم وياكل هذا الجبن او يتخلص منه · فانا لا اتحمل البقاء مع هذا الشيء تحت سقف واحد اكثر من هذا ·

وجاءت فاتورة الفندق بخمسة عشـــر جنيهـا · وهكذا وبعد أن جمع صديقى كل التكاليف · اكتشف أن ثمن الجبن صار يفوق الجنيه والثمانية شلنات التى دفعها ثمنا له بكثير · مما جعله يقول انه وان كان يعشق اكل الجبن القديم الا انه اصبح مكلفا للغاية · ولهذا قرر التخلص من قطعة الجبن ·

وبدأ بأن القاه فى النهر ، ولكن عمـــال القوارب اشتكوا من رائحته التى تصيبهم بالاغماء ، وصار عليه أن يستخرجه ثانية · وبعد محاولات مختلفة فشلت جميعها · هداه تفكيره الى أن يدفنه فى رمال الشاطئ فى احدى المدن الساحلية الصغيرة ··

وقد اشتهرت هذه المدينة الآن بعد أن كثر حديث الناس عن مدى قوة هوائها وأصبحت المدينة الساحلية مزارا لمرضى الصدر لسنوات عدة بعد هذا ·· !

وهكذا ، رغم ولعى الشديد بأكل الجبن وافقت على رأى جورج بعدم أخذ أى جبن معنا فى رحلتنا القادمة ·
وقبل أن نفترق هذا المساء ، كنا قد وضعنا قائمة بالأشياء التى يجب أن نأخذها معنا ·· وفى اليوم التالى ـ يوم الجمعة ـ جمعنا كل شىء ووضعناه مع بعضه البعض والتقينا فى المساء لنحزم الحقائب والأمتعة ·

احضرنا حقيبة كبيرة للملابس وسلتين كبيرتين للطعام وأدوات الطهى · وازحنا المنضدة من وسط الغرفة والصقناها بالجدار بجوار النافذة · ثم وضعنا كل الأشياء وفى كومة واحدة فى منتصف الغرفة على الأرض وجلسنا حولها ننظر اليها ·

وبعد لحظات من الصمت انبريت قائلا :

ـ دعوا لى مهمة ترتيب هذه الأشياء !

الحقيقة أنى كنت فخورا ـ الى حد ما ـ بطريقتى فى ترتيب الحقائب وحزم الأمتعة فهذا شىء من تلك الأشياء التى اعتقد أنى أعرفها أكثر من أى انسان آخر وقد أوضحت هذه الحقيقة لكل من جورج وهاريس ·

فوافقا على ترك المهمة بحماس بالغ · وأشعل جورج غليونه وألقى بنفسه فوق مقعد وثير ووضع هاريس قدميه فوق المنضدة وأشعل سيجارا وجلس يدخنه فى استرخاء شديد ·

أوه ! لم يكن هذا ـ بالتأكيد ـ هو ماقصدت اليه بقولى (دعوا لى مهمة ترتيب الأشياء) لكنى كنت أقصد مهمة ادارة عملية الترتيب على أن يعمـــلا ـ جورج وهاريس ـ بناء على توجيهاتى ·· أوه ان أخذهمـــا عبارتى هذا المأخذ أغاظنى بشدة · فلا شـــىء يثير غضبى قدر أن أرى الآخرين يجلسون هكذا بلا عمل بينما أقوم أنا بالعمل كله وحدى ·

على أية حال لم يعد فى امكانى التراجع الآن · وبدأت العمل باجتهاد · وكم بدا لى شاقا وطويلا أكثر مما كنت أتصور بكثير · الا انى أخيرا انتهيت من ترتيب حقيبة الملابس وجلست فوقها لأحكم اغلاقها · وفى هذه اللحظة سألنى هاريس بهدوء وبرود :

ـ ألن تضـــع الأحـــذية ذات الرقبة الطويلة فى الحقيبة ؟ !

فنظرت حولى ووجدت أنى قد نسيت الأحذية بالفعل !

ياالله !! ان هاريس لم يشأ أن يكلف نفسه عناء تنبيهى ولو بكلمة واحدة قبل أن أنتهى من ترتيب كل شيء واستعد لاغلاق الحقيبة وحزمها .

وبينما انا افتح الحقيبة من جديد لأضع فيها الأحذية راح جورج يقهقه عاليا فى واحدةمنضحكاته الهيستيرية التافهة . أه كم يثيرنى تصرف هذين الشخصين ويغيظنى .

وما كدت أبدأ فى اغلاق الحقيبة مرة أخرى حتى مر بذهنى خاطر مأساوى .. اتراني قد وضعت فرشاة أسنانى فى الحقيبة ام نسيتها كعادتى .

مرة أخرى كان على ان اخرج كل شيء فى الحقيبة بحثا عن الفرشاة . وفى بحثى وجدت فرشاة جورج وفرشاة هاريس ، لكنى لم أجد فرشاة أسنانى أنا . واخذت اضع الأشياء فى الحقيبة قطعة قطعة علنى أجدها ، وكنت أرفع كل قطعة الى اعلى واهزها فربما تكون فرشاة اسنانى عالقة بها . ولكن ضاع كل هذا

سدى ·· الى ان وجدتها أخيرا مختبئة داخل أحد الأحذية ذات الرقبة الطويلة فوضعتها فى مكانها وبدأت أرتب كل شىء من أول وجديد ·· !

وجلست فوق الحقيبة لأشد وثاقها وأحكم اغلاقها ، ولكنى ما أن بدأت فى ذلك حتى تذكرت انى قد وضعت علبة الطباق الخاصة بى داخل الحقيبة · وهكذا كان على أن أفتحها لأعيد الكرة مرة أخرى !!

وبعد أن انتهيت وببروده القاتل عاد جورج يسألنى عما اذا كنت قد وضعت الصابون فى الحقيبة أم نسيته · فصرخت فيه بصبر نافد وقلت له اننى لا يعنينى ان كان الصابون داخل الحقيبة أم خارجها ·

أخيرا ، وبعد أن تعدت الساعة العاشرة بخمس دقائق أتممت تحزيم الحقيبة واغلاقها · وبقى أن أرتب الأشياء الأخرى فى السلتين · ولكن هاريس قال فى تعال وسخرية أنه يرى من الأفضل ان يقوم هو وجورج ببقية العمل · فوافقت فى الحال وجلست ألتقط أنفاسى بينما بدأ صديقاى فى العمل ·

شرع الصديقان فى العمل بروح مرحة وبعزيمة معقودة على أن يريانى كيف يكون العمل فى مثل هذه الأشياء . أما أنا فلم ابد أية ملاحظة ، فقط جلست انتظر وأنظر الى أكوام الأطباق والاقداح والغلاية والموقد والفطائر والكعك والفاكهة والزبد والمربى ... الى آخره ، وملأنى شعور بأن الأمر سيكون مضحكا للغاية.

وقد كان ، فقد بدأ بكسر قدح من الزجاج ، ثم وضع هاريس علبة مربى كبيرة فوق بعض الفاكهة الناضجة وسحقها فكان عليهما ان يخرجا بقايا الفاكهة من السلة بواسطة ملعقة صغيرة . ثم جاء دور جورج الذى دهس الزبد بقدمه .. وبالطبع لم أعلق أنا على كل هذا ولكنى قمت وجلست على حافة المنضدة لأتفرج مستمتعا عليهما . وقد أغاظهما تصرفى هذا بما يفوق ماكان يمكن ان يفعله اى تعليق .

ثارت أعصابهما واشتعل غيظهما فازداد ارتباكهما وطفقا يمشيان على الأشياء ، ويضعان اشياء اخرى خلف ظهريهما ، ثم يعودان يبحثان عنها فلا يجدانها .

ووضعا الفطائر فى قاع السلة والأشياء الثقيلة على السطح وبذلك هرسا الفطائر · ونثرا الملح فوق كل شيء · بل انى لم أر رجلين فعلا برطل من الزبد أكثر مما فعل جورج وهاريس ·

فبعد أن انتزعه جورج من نعل حذائه حاولا أن يضعاه فى علبة فلم يستطيعا أن يضعاه كله بداخلها ، وما أدخلاه لم يستطيعا اخراجه · واخيرا كحتاه ووضعاه فوق أحد المقاعد · وفى غفلة منه جلس هاريس على هذا المقعد فالتصق الزبد بمقعدته وبعد برهة كان هو وجورج يقلبان الغرفة بحثا عن الزبد ·

وقال جورج وهو يحملق فى المقعد الخالى :

ــ أقسم أنى وضعته فوق هذا المقعد ·

ورد عليه هاريس :

ــ انى رأيته بعينى راسى منذ أقل من دقيقة !

ثم أخذا يدوران فى الغرفة بحثا عن رطل الزبد ،

ثم تقابلا مرة أخرى فى منتصف الغرفة وحملق كـــل منهما فى الآخر ٠

وقال جورج :

ـ ان هذا أعجب شيء سمعت به فى حياتى !

وأيده هاريس بقوله :

ـ انه لشيء غامض جدا !

واستدار جورج مصادفة خلف هاريس فوجد الزبد ملتصقا بمقعدته فصاح مندهشا فى غضب :

ـ ياربى ٠٠ هاهو الزبد موجود هنا طول الوقت !

وصاح هاريس وهو يستدير للخلف بسرعة :

ـ أيــن ؟

وأمسك به جورج **ونهره بقوله :**

ـ قف حيث أنت ٠٠ ألا يمكنك أن تقف ساكنا أبدا ؟!

ثم انتزع قطعة الزبد من مقعدته ووضعها فى علبة الشاى ٠

وغنى عن الذكر أن مونتمورينسى كان مشاركا فى تلك الفوضى منذ البداية · فان اقصى ما يطمح اليـه مونتمورينسى هو ان يكون دائما حيث لا يجب أن يكون وأن يعترض طريقك حيثما توجهت ، وتبلغ سعادته قمتها حينما يثير اعصاب الناس فيقذفونـــه فى وجهـه بكل ما تناله ايديهم · انه هكذا يشعر بالرضا عن يومه ·

فهو قد جلس ممددا فوق الأشياء التى اردنا جمعها معا · وقد بدا عليه انه يعتقد انه حيثما مد جورج او هاريس يدا لتناول اى شىء فانما هما يقصدان أنفـه الرطب · ثم وضع قدمه في المربى ولوث بها كل الملاعق واصر على اعتبار التفاحات فئرانا ومن ثم قفز داخل السلة ثلاث مرات قبل أن يطرده هاريس بواســطة المقلاة ·

وتم حزم الأمتعة كلها فى الثانية عشرة وخمسـين دقيقة · وجلس هاريس فوق اكبر السـلتين وقال وهو يلهث انه يأمل الا يكون شىء قد تكسر ، فرد عليه جورج بأن قال انه اذا كان ثمة شىء قد انكسر فقد انكسر ،

وقد بدا كأنما أراحته هذه الفكرة ·· ثم قال أنه أصبح الآن جاهزا للنوم ·· وفى الحقيقة كنا جميعا فى أمس الحاجة للنوم وقد قــــرر هاريس ان يبيت معنا الليلــة فصعدنا الى حجرات النوم ··

وسألنا جورج :

ـ فى اى وقت تحبون أن اوقظكم يارفاق ؟

قال هاريس :

ـ فى السابعة ·

ولكنى قلت بسرعة :

ـ لا ·· بل السادسة ·

لأنى كنت اريد ان اكتب بعض الرسائل · وأخيرا اتفقنا على أن نجعلها السادسة والنصف

وقلنا أنا وهاريس فى صوت واحد :

ـ ايقظنا فى السادسة والنصف ياجورج

ولكن جورج لم يحر جوابا والفيناه قد سافر فى نوم عميق فوضعنا اناء الحمـــام مملوءا بالمـــاء تحت سريره وحيث يستطيع ان يسقط فيه عند استيقاظه ٠٠ ثم ذهبنا لننام ٠٠ !

الفصل الخامس

وبدأنــا الاجــازة

كانت السيدة بوبيت هى التى أيقظتنى فى الصباح وهى تقول :

ــ هل تعلم أن الساعة قد قاربت التاسعة ياسيدى ؟

فانتفضت مفزوعا وأنا أصرخ :

ــ ماذا ؟ التاسعة !

فاعادت مسز بوبيت على سمعى قولها وهى لاتزال خلف الباب :

ــ التاسعة تماما ياسيدى ، أعتقد أنك نمت كثيرا .

أيقظت هاريس واخبرته ان الساعة قد صـــارت التاسعة صباحا فقال وهو يغالبه النعاس .

ــ التاسعة ؟ .. اعتقد انك كنت تريد الاستيقاظ فى السادسة ..

ــ نعم كنت اود هذا . لم لم توقظنى حتى الآن ؟

ــ كيف اوقظك بينما أنت تركتنى نائما ؟ !

واستطرد هاريس قائلا بغضب :

ــ الآن لن نستطيع أن نكون فى الماء قبل الثانية عشرة .. !

ثم قال بسخرية غاضبة :

ــ اننى اعجب كيف حملت نفسك كل هذه المشقة ونهضت من فراشك !

فأجبته فى حدة قائلا :

ــ من حسن حظك انى فعلت ذلك .. فلو انى لم

أستيقظ وأوقظك لظللت راقدا هناك تغط فى نومك طوال الأسبوعين القادمين !!

وبينما نحن فى جدلنا هذا ، لاحظنا فجأة ـ وفى وقت واحد ـ أن جورج لايزال راقدا .. هذا الرجل الذى كان منوطا به مهمة ايقاظنا ، والذى أظهر حرصا مبالغا فيه لمعرفة الموعد الذى نود أن نصحو فيـــه . ها هو ذا لا يزال راقدا على ظهره وفمه مفتوح على مصراعيه وركبتاه ملتصقتان . وما ان رأينـــاه حتى نسينا جدالنا واندفعنا اليه فى وقت واحد وجذبنا كل الأغطية والملابس من فوقه .. وأعطاه هاريس صفعة قوية (بالشبشب) بينما أخذت أنا أصيح فى أذنه حتى أيقظناه بطريقة يستحقها .

قال جورج ساخطا وهو يستوى قاعدا :

ـ ماذا حدث ؟!

فصرخنا فيه :

ـ قم أيها الغبى ذو الرأس الثقيلة .. ان الساعة قد جاوزت العاشرة !

فصعق وقفز واقفا وهو يصيح :

ـ ماذا ؟ ؟

فوقع فى اناء الحمام المملوء بالماء والذى كنا قد وضعناه أمام سريره بالأمس ، فصرخ وقد مزقه الغيظ :

ـ أى انسان على وجه هذه الأرض وضع هذا الشىء هنا ؟

فقلنا له ساخرين ، انه لابد أن يكون احمق لأنــه لم ير الحوض الموضوع أمام سريره وارتدينا ملابسنا ، ولكن عندما أردنا تصفيف شعرنا ، تذكرنا اننا قد وضعنا فرشاة الشعر مع فرش الأسنان بالحقيبة وبالتالى كان علينا أن ننزل ونفتح الحقيبة ونخرجهـــا ·· وبعد أن فعلنا هذا وأغلقنا الحقيبة ·· قال جورج أنه يريد أدوات الحلاقة من داخل الحقيبة ولكننا أجبناه أن عليه أن يخرج اليوم بدون حلاقة لأننا لن نهدم كل مارتبناه لأجل خاطر ذقنه !

توجهنا لتنـــاول طعـــام الافطـــــار ، وبدا أن

مونتمورينسى قد دعا اثنين من كلاب الحى على طعام الافطار لكى يودعاد ، وقد قضيا وقتهما فى العراك عند درجات سلم الباب فاسكتناهما بمظلة المطر وجلسنا نتناول الافطار .

امسك جورج الجريدة واخذ يقرأ بصوت عال ـ متعمدا ـ اخبار حوادث السفن وأنباء النشرة الجوية التى كانت تتنبأ بطقس بارد وأمطار غزيرة مصحوبة بعواصف رعدية ورياح شرقية شديدة !

أوه .. اننى أعتقد انه من بين كل الأشياء الحمقاء التى تملأ الدنيا وتنغص علينا حياتنا فان نشرة التنبؤات الجوية اسواها وأكثرها حمقا .. انها قد تنبئك بدقة عن طقس امس او امس الأول بينما تنبئك ـ وبدقة ـ عن عكس ماسوف يحدث اليوم .

اننى أذكر عطلة لى مع اصدقائى أفسدناها تماما بتصديقنا لتنبؤات الأرصاد المنشورة فى الصحف . كنا فى اواخر الخريف وبدايات الشتاء وقد قررنا قضاء يوم فى الريف . وبعد ان وصلنا الفندق الذى سننزل

فيه فى العطلة قرأنا تنبؤات الأرصـــاد . وكانت تتنبأ بأمطار غزيرة مصحوبة بعواصف رعدية تحدث فى نفس اليوم .

وعلى هذا تخيلنا مشروعاتنا فى قضاء اليوم فى الخلاء ومكثنا بالداخل ننتظر هطول الأمطار ونتطلع من النافذة . كان الناس يمرون أمامنا فى عربات مكشوفة وكانوا فى منتهى المرح والسعادة ، والشمس فوقهم فى غاية الاشراق والسماء صافية لا يعكر صفوها مرور سحابة واحدة .

اخذنا نتندر على هؤلاء الناس ونقول :

ــ آه .. لابد انهم سيعودون لبيوتهم غارقيـــن فى الماء !

وابتسمنا لهذه الفكرة .. فكرة ان هؤلاء الناس السعداء بالشمس المشرقة ، سيعودون لبيوتهم وملابسهم تقطر ماء بعد أن بفاجئهم المطر والرياح ، وتركنا النافذة وعدنا للداخل فأججنا لهيب نار المدفاة وتحلقنا حولها وقد امسك كل منا بكتاب يقرأه .

وعند منتصف النهار ، ومع انسكاب أشعة الشمس داخل الحجرة أصبحت الحرارة لاتطاق ·· وأخذ سؤال حائر يتردد بيننا ·· متى ستبدأ تلك الامطار الغزيرة والعواصف الرعدية التى نبأتنا عنها الأرصاد وأخذنا نقول لبعضنا البعض :

ـ يبدو أنها ستبدأ بعد الظهر ·· أوه ·· لابد أن هؤلاء الناس سيغرقون فى ملابسهم المبتلة · يالها من نكتة !

وفى الساعة الواحدة دخلت صاحبة المنزل وسألتنا عما اذا كنا لن نخرج للنزهة فى هذا الطقس الجميل ؟ ! فأجبناها ونحن نضحك ضحكة الخبير العالم ببواطن الأمور :

ـ لا ·· لا ·· اننا لانحب أن نبتل · لا ·· لا ·

وعندما صار عصر اليوم على وشك الانتهاء دون أن تسقط قطرة واحدة من السماء ، أخذنا نواسى أنفسنا بقولنا ·· ان المطر سيبدأ فجأة ، بينما يكون هؤلاء الناس فى رحلة عودتهم لبيوتهم ووقتها لن يجدوا

ما يحتمون تحته من المطر وسيبتلون بشكل غير متوقع ·

ولكن السماء لم ترسل قطرة واحدة ومر اليوم كأجمل مايكون بل وتلته ليلة دافئة رائعة ·

وفى الصباح التالى قرأنا فى الجريدة أن الطقس سيكون اليوم دافئا مستقرا ، وقد ترتفع درجة الحرارة ارتفاعا طفيفا · فارتدينا ثيابا خفيفة وخرجنا ·

ولم يمض أكثر من نصف ساعة حتى بدأ المطر ينهمر وهبت علينا الرياح قارصة البرودة واستمر الطقس على هذه الحال طول اليوم · وعدنا للبيت مصابين بالصداع وآلام المفاصل فالقى كل منا بنفسه فوق فراشه وراح فى النوم ·

أوه ، سيظل الطقس بالنسبة لى شيئا يستعصى على الفهم أبدا ·

ونعود الى صباحنا هذا ، فقد كان الطقس يبدو جميلا دافئا والشمس ساطعة الا ان جورج قد قرأ هذه التنبؤات ليثير قلقنا انتقاما لما فعلناه به عندما

أيقظناه ، وعندما وجد أننا لم نتأثر بكلامه وأنه أضاع وقته سدى ، قام بعد ان أخذ سيجارتـــى التى لففتهـا لنفسى بعناية وخرج قاصدا الذهاب الى البنك ٠

بعد الافطار ، حملنا أنا وهاريس الأمتعة ووضعناها أمام الباب فى الخارج ووقفنا ننتظر عربة أجرة ٠٠ ويبدو أننا أحسنا صنعا بوضع الأمتعة كلها معا ٠ كانت هناك الحقيبة الجلدية الكبيرة وأخرى صغيرة بالاضافة لسلتى الطعام الكبيرتين وكومة كبيرة من الأغطية وأربعة أو خمسة معاطف ضد المطر عدا بعض المظلات ورغيفا كبيرا من الخبز وضع وحده فى حقيبة خاصة لأنه كان كبيرا جدا بحيث لايمكن وضعه فى حقيبة واحدة مع أى شىء آخر وأيضا رطلين من التفاح وضعناهما فى سلة وحدهما ٠ والمقـــلاة التى كانت طويلة بحيث كان من المتعذر حزمها مع بقية الأشياء فلففناها بالورق وحملناها وحدها ٠

كان هذا كثيرا بالتأكيد ، وقد بدأنا نشعر بشـــىء من الخجل لحملنا كل هذه الأشـــياء ، وان كنت فى الحقيقة لا أجد مبررا لهذا الخجل ٠

ومر وقت طويل ونحن واقفان ولم تمر أية عربـــة أجرة . وبدلا من هذا مر بعض الصبية الذين بدا عليهم الاهتمام بالعرض الذى كنا نقدمه فوقفوا ليتفرجـــوا علينا .

وكان أول القادمين صبى « بيجز » وبيجز هذا هو متعهد توريد الفاكهة والخضراوات لنا . وكان كأنما يستخدم أحط الفتيان وأكثرهم شرا فى هذا العالم ليعملوا عنده كصبية له (يحملون الفاكهة والخضروات لتوصيلها للمنازل) عندما ظهر هذا الصبى عند ناصية الشارع كان يسير مهرولا ولكنه ما أن وقعت عيناه على منظرنا أنا وهاريس ومونتمورينسى وكومة الأشياء حتى أبطأ فى سيره وأخذ يحملق فينا .

وجهت اليه أنا وهاريس نظرات متنمرة محذرة ، ولكن .. ضاعت نظراتنا سدى ، فقد استمر الصبى فى سيره نحونا حثيثا الى أن أصبح بينه وبيننا خطوة واحدة وانحنى مستندا على درابزين السلم ، وجعلنا نتسمر فى أماكننا بنظراته النافذة .

وفى اللحظة التالية مر صبى البقال من الجهـــة الأخرى للشارع فناداه صبى « بيجز » قائلا :

ـ هاى ·· ان الدور الأرضى للمنزل رقم ٤٢ قد بدأ يتحرك !

وبسرعة جاء صبى البقال واتخذ مكانه على الجانب الآخر من السلم وتلاه شاب يعمل فى دكان الأحذية ووقف بجوار صبى «بيجز» · ثم توافد آخرون وآخرون واحدا تلو الآخر · وجاءت عبارات التهكم من الشاب اللطيف الذى يعمل فى دكان الأحذية فقد قال :

ـ انهم لن يموتوا جوعا على مايبدو أليس كذلك ؟

ورد عليه آخر :

ـ آه · أكنت ستحمل معك شيئا أو شيئين فقـط لو أنك كنت ستعبر الاطلنطى فى قارب ·

وبمرور الوقت تجمع حولنا مجموعات من المارة ، وبدأ الناس يتساءلون عن سبب هذه (الزحمة) ومالت مجموعة الشباب لرأى القائل أن أحدنا على وشـــك

الزواج وقد أشاروا لهاريس باعتباره سعيد الحظ . أما مجموعة كبار السن الأكثر رزانة فقد ارتاحوا اكثر لفكرة أن هناك جنازة وأنني ربما أكون أخا للفقيد .. !

أخيرا وصلت عربة أجرة فارغة حملتنا وأشياءنا بينما تخلصنا من صديقى مونتمورينسى اللذين كانا قد أقسما ألا يفارقاه أبدا . وشققنا طريقنا وسط الزحام وألقى صبى بيجز ببصلة خلفنا جلبا للحظ .

وصلنا محطة ووترلو فى الحادية عشرة ، وسألنا عن مكان القطار الذى يتحرك فى الحادية عشرة وخمس دقائق . وبالطبع لم يكن هناك من يعرف ! فلا أحد فى ووترلو يعرف من أين أو الى أين يتحرك أى قطار فى هذه المحطة . أو قل أنه لايوجد من يعرف أى شىء عن أى شىء فى تلك المحطة .

كان الحمال الذى حمل أمتعتنا يعتقد أن قطارنا سيتحرك من الرصيف رقم (٢) . ولكن أحد موظفى المحطة سمع شخصا يقول أن هذا القطار سيخرج من رصيف رقم (١) وعلى أية حال كان ناظر المحطة متأكدا من أنه سيتحرك من رصيف (٤) .

ولكى نضع نهاية لهذا الارتباك قررنا الصعود للسيد رئيس الحركة لسؤاله . وبالفعل اجابنا سيادته بأنه قد قابل للتو رجلا اخبره أن قطار الساعة ١١٫٠٥ يقف على رصيف رقم (٣) فأسرعنا الى هناك ولكننا عرفنا عند وصولنا أن القطار المنتظر هناك هو القطار السريع المتجه الى ساوث هامبتون .

بعد هذا ، قال الحمال أنه يعتقد أنه رأى قطارنا يقف على رصيف آخر فعاودنا الكرة وعدنا ندور متجهين الى رصيف آخر ووجدنا سائق الجرار فسألناه اذا كان متجها الى كنجستون ، فقال أنه ليس متأكدا على وجه الدقة ولكنه يظهر ذلك . فدسسنا ثلاثة شلنات فى يده ورجوناه ان يكون هو القطار المتجه الى كنجستون والذى يتحرك الساعة ١١٫٠٥ **وقلنا له :**

ـ ولن يعرف أحد أبدا أى قطار أنت ولا الى أين ستتجه . انك تعرف الطريق فتسلل ببطء واذهب الى كنجستون !!

فاجابنا الرجل النبيل بقوله :

ـ حسن ، حقا أنا لا أعلم ، ولكنى متأكد من أنه لابد أن يتجه قطار الى كنجستون · وانا سأفعل وهكذا وصلنا كنجستون عن طريق سكك حديد لندن والشمال الغربى · وعرفنا بعد ذلك أن القطار الذى حملنا كان قطار البريد وأنهم قضوا عدة ساعات فى محطة ووترلو يبحثون عنه ولم يعرف أحد ما مصيره ·

ووجدنا القارب يقبع فى انتظارنا تحت القنطرة فى كنجستون فشققنا اليه طريقنا ورتبنا فيه الأمتعة ثم خطونا داخله · **وسألنا (المراكبى) قائلا :**

ـ هل كل شيء على مايرام ياسادة ؟ !

فأجبناه معا :

ـ على مايرام تماما ·

واندفعنا فوق صفحة النهر الذى سيكون ولأسبوعين قادمين وطننا الذى نعيش فيه ··

الفصل السادس

التيه فى قصر هامبتون

كان يوما رائعا من ايام الربيع الأخيرة ، وكان كل ماحولنا يصنع صورة للربيع مشرقة وهادئة · مملؤة بالحيوية ومملوءة بالسلام · وبينما كان هاريس يجدف بنشاط رقدت أنا على ظهرى وأخذت أحلم بايام كنجستون الخوالى ·

لكن ، على أية حال سرعان ماقال هاريس انه عمل بما فيه الكفاية وأن دورى قد جاء لأقوم بالتجديف · ومررنا فى سيرنا بقصـــرهامبتون المشهور بمتاهته ، وكان يبدو هادئا ينعم بسلام جميـــل ·· وبينما انا

مسترسل فى افكارى الحالمة اذ بهاريس يقطعهـا على ليسالنى ان كنت دخلت لمتاهة قصر هامبتون قبل هذا ام لا ؟

ثم استطرد فى حكايته قائلا ، انه دخلها ذات مرة ليدل شخصا آخر على الطريق • وقد درسها بواسطة خريطة • ولكم كانت الخريطة بسيطة لدرجة (العبط) لدرجة أنه تصور ان الخريطة قد رسمت كدعابة ، حيث انها لـــم تكن تبدو كخريطة حقيقية بل مجموعـــة من الخطوط المتداخلة وكان الرفيق الذى اخذه هاريس ليريه تلك المتاهة هو ابن عم له من الريــف • وقد قال لـــه هاريس :

ــ سوف تدخل هناك فى الحال ، حتى تستطيع أن تحكى وتقول انك دخلت هذا المكان • ولكنى احــب ان اقول لك أنه من التغفيل ان نسمى هذا المكان تيها أو متاهة اذ انه غاية فى البساطة والوضوح كل ما عليك هو ان تحتفظ دائما باتجاهك الى اليمين من لحظة دخولك الى ان تخرج • على اية حال سوف نتجول سويا فى الداخل مدة عشر دقائق ثم نخرج لنتناول غداء خفيفا •

وفور دخولهما قابلا بعض الزائرين الذين اشتكوا لهاريس قائلين أن لهم أكثر من ثلاثة أرباع الساعة فى هذه المتاهة وقد نالهم منها مايكفى · فقال لهم هاريس أنهم يمكنهم اتباعه ان ارادوا اذ أنه دخل لتوه ولسوف يأخذ جولة صغيرة فى القصـــر ثم مايلبث أن يعــود ويخرج ثانية · فشكروه وقالوا ان هذا عطف كبير منه ومن ثم تبعوه ·

واثناء سيرهم تجمع خلفهم التائهون الذين يرغبون فى الخروج حتى صار كل من فى المتاهة يسير خلف هاريس · حتى أولئك الذين استسلموا وفقدوا كل أمل فى الخروج من هذا المكان ورؤية عائلاتهم وأصدقائهم مرة ثانية . حتى هؤلاء تشجعوا وانتعش الأمـــل فى نفوسهم عند رؤية هاريس وجماعته فانضموا الى تلك المظاهرة سائلين الله ان يباركه !

وقد قدر هاريس عدد من تبعوه بحوالى عشرين شخصا ·· بالاضافة لسيدة تحمل طفلها على كتفهـــا وتعلقت بذراع هاريس خشية أن تفقده أو يتوه عنها ·

وظل هاريس ـ حسب فكرتــــه ـ محتفظا بالاتجاه لليمين باستمرار ·· ولكن الطريق بدا طويلا حتى قال ابن عمه انه يعتقد ان هذا القصر كبير جدا فـرد عليه هاريس بقوله :

ـ أوه ! بل هو واحد من اكبر القصور فى أوروبا كلهـا ·

ورد ابن عمه :

ـ لابد ان يكون كذلك . فقد سرنا داخله اكثر من ميلين حتى الآن ·

حتى هاريس غزا قلبه الشك وبدا يحس ان الامر صار غريبا . ولكنه استمر فى السير بنفس طريقته حتى مروا فى سيرهم بقطعة من الكعك ملقاة على الأرض فى احد الممرات والتى اقسم ابن عمه انه رآها هى بعينيها منذ سبع دقائق فقط ولكن هاريس قال :

ـ لا مستحيل !

فصاحت فيه المراة التى تحمل طفلها على كتفها

ـ لا ليس مستحيلا البتة ٠

قالت السيدة هذا بلهجة الواثق لأنها هى بنفسها كانت قد اخذتها من يد ابنها والقتها على الأرض قبيل ان ترى هاريس مباشرة ٠ ثم أضافت السيدة انها تتمنى لو أنها لم تر هاريس قط ٠ وعبرت عن رأيها فيه بصراحة بقولها أنه مخادع وانه قد ضللهم جميعا فاغتاظ هاريس واخرج الخريطة وجعل يشرح فكرته للجميع ٠ فقال أحد الموجودين :

ـ لا بأس باتباع الخريطة ان استطعنا ان نعرف اين نقف الآن ٠

لكن احدا لم يكن يعرف ٠٠ وهاريس لم يكن يعرف ٠ لهذا فقد اقترح ان يعودوا ثانية للمدخل ويبدأوا من جديد ٠ ولكن أحدا لم يبد حماسا لفكرة ان « يبدأوا من جديد » وان الكل قد وافقوا على العودة الى المدخل ومن ثم استداروا وساروا خلف هاريس ثانيـــة فى عكس الاتجاه ٠ ومضت عشر دقائق أخرى ثم وجدوا أنفسهم مرة أخرى فى المركز ٠

وفكر هاريس فى ان يتظاهر بانه قد وصل الى ماكان يهدف اليه ولكن الجماعة بدت خطرة ومتحفزة مما حدا به الى ان يقرر التعامل مع الموقف على أنه مصادفة ·

على الاقل صار لديهم الآن شيئا يهداون منه · انهم على الأقل يعرفون أين هم الآن · وبالتالى فتحوا الخريطة وبحثوها ثانية وبدا الامر أبسط من أى وقت مضـــى وأعادوا الكرة للمرة الثالثة · ولكن وبعد مرور ثلاث دقائق اخرى وجدوا انفسهم فى المركز حيث كانوا ·

بعد هذا لم يستطيعوا الوصول لشـــىء ، فحيثما ساروا أو اتجهوا ينتهى بهم المطاف الى نقطة البداية ·· المركز · لدرجة أنه صار من المالوف أن يتوقف البعض فى المنتصف بينما يدور الآخرون دورة ويعودون لنفس المكان ثم يتبادلون الموقف فيستريح من كان يمشـــون ويمشى من استراحوا وأخرج هاريس خريطته ثانيـــة ولكن مجرد ظهورها اثار غضب الجميع وقال هاريس انه قد بدأ ينمو داخله شعور بانه شخص غير مرغوب فى وجوده ·

اخيرا صـــــرخوا جميعا بكل قوتهم ونــادوا على الحارس · وسرعان ماتسلق رجل السلم الخارجـــى وصاح يناديهم ويشير الى الاتجاه الذى يجب أن يسيروا فيه ولكنهم لم يفهموا فاشار لهم بما يعنى أن يمكثوا حيث هم حتى يأتى هو لهم ·

كان حارسا شابا ، عين حديثا فى القصر · وعندما دخل القصر لم يصل الى مكانهم بل تاه هو الأخر ·· كانوا يرونه من وقت لآخر يجرى على الجانب الآخر من السياج · وكان يراهم فيسرع بالدوران ليصل اليهم ·· وكانوا ينتظرون ·· وبعد دقائق يعود فيظهر ثانية فى نفس البقعة التى ظهر فيها من قبل ويسالهم أين ذهبوا !

واضطر الجميع للانتظار حتى عاد احد الحراس القدامى من غدائه· حتى يخرجهم من قصر التيه هذا ··

وعلق هاريس على هذه القصة بأنها كانت متاهة ممتعة ، وقد قررنا كلانا أن نجعل هاريس يدخلها ونحن فى طريق عودتنا ·

كان من المفروض أن نقابل جورج فى « شيبرتون »

فى تمام الخامسة · وعندما ذكرت هاريس بهذا وجدته قد غضب فجأة واخذ يسب جورج ويتساءل فى غضب عنيف · لماذا كان جورج احمق هكذا طول اليوم ـ فيتركنا نجدف وحدنا بهذا القارب القديم حتى نقابله ؟ ولماذا لم يات جورج ويفعل شيئا معنا ؟ لماذا لم يأخذ هذا اليوم اجازة من العمل ويأتى معنا؟اية فائدة يجنيها البنك من عمله به ؟ · · · واستمر هاريس فى سيل سباب واسئلته قائلا :

ـ اننى لم ارد ابدا ·فعل شيئاذاقيمةفى ايةمرةزرته فيها هناك · · كل مايفعله هو انه يجلس خلف حاجز من الزجاج محاولا التظاهر بانه يفعل شيئا · · اى نفع يرجى من رجل يجلس خلف قطعة من الزجاج · · اننى اعمل لأعيش فلماذا لا يستطيع ان يعمل هو ؟ اننى لا اصدق ان جورج يعمل فى هذا البنك اصلا · · بل لابد انه يلعب ويلهو فى مكان ما · ان هذا هو مايفعله الآن بالتاكيد تاركا ايانا نقوم بكل العمل وحدنا !

من الحكمة دائما ان يترك هاريس ليفرغ ماعنده فى مثل تلك الحالات · · فسرعان ماتنتهى شحنة غضبة ويعود هادئا وديعا كعادته · ·

الفصل السابع

عن الأغنيـــات الهزليـــة

توقفنا فى طريقنا وجلسنا تحت ظـلال اشــجار كيمبتون وبدأنا نتناول غداءنا · كنا نجلس فى بقعـة بديعة ساحرة حيث تنبسط الحشائش الخضراء على امتداد ضفة النهر بينما تحوطنا الأشـــجار الجميلة الباسقة ·

كنا قد وصلنا للمرحلة الثالثة من الغداء ـ الخبز والمربى ـ عندما هل علينا رجل لطيف لا يرتدى سـترة فوق قميصه ويدخن غليونا قصيرا وسألنا اذا كنا نعلم أننا نجلس فى بقعة خاصة · فكان ردنا أننا لم نفكر فى هذا الأمر كثيرا حتى الآن ، ولكن ان هو أعلن لنا هذا

بلسانه شخصيا فاننا لن نتاخر لحظة عن تصديقه وبدون تردد ٠

وبالفعل ألقى السيد المهذب علينا اعلانه وبدورنا صدقناه فى الحال ٠ ولكنه ظل واقفا لم يتحرك وبدا عليه أنه غير راض بهذا التصديق ، لهذا سألناه ان كان هناك شىء آخر نستطيع أن نفعله من اجله حتى أن هاريس ـ الذى يتميز بالوداعة ـ قدم اليه قطعة من الخبز بالمربى ولكنه رفض ذلك بغضب شديد بل وأضاف بحدة وتحد أن واجبه يحتم عليه القاءنا خارج هذا المكان ٠

فقال له هاريس بهدوء ووداعة أنه اذا كان هذا هو واجبه فان عليه أن يقوم به ، ثم سأل الرجل عن أحسن وسيلة يمكن بها تحقيـــق هذا الواجب ٠ كان هاريس ضخم الجثة قوى البنيان ، فنظر اليه الرجل وحملق فيه من أعلى الى أسفل ومن اليمين الى اليسار ثم قال بنبرة فيها من التردد أكثر مما فيها من الحدة ـ أن عليه ان يذهب أولا ويسأل سيده النصيحة ثم يعود ليلقى بنا فى النهر ٠

وبالطبع لم يعد أبدا وبالتأكيد كان كل مايريده من رهابنا هو أن نعطيه شلنا · فهناك الكثيرون من أمثال هذا الرجل الفظ الذين يكسبون عيشهم خلال الصيف بالحصول على الاتاوات من ذوى العقول الضعيفة بمثل هذه الطريقة ·

وخير وسيلة لمواجهة مثل هذه المواقف ، هو أن تترك اسمك وعنوانك لهذا الدعى ليعرفهما لصاحب الأرض ان كان لها صاحب ، ليستدعيك للمحكمة ويحاسبك عما أحدثت من اضرار بجلوسك على هذه البقعة الصغيرة من الأرض فى حديقته · غير أن مايحدث فى الواقع هو أن معظم الناس يكونون من الضعف والخوف بحيث أنهم يفضلون أن يدفعوا لمثل هذا الدعى مايطلب منهم ، بدلا من أن يضعوا نهاية لكل هذا العبث بمجرد اظهارهم لشىء من الحزم ·

وأحيانا كثيرة ـ أيضا ـ يقع اللوم على ملاك الأرض أنفسهم · فبعض هؤلاء الناس يريدون وقف نهر التيمس عليهم وانهم ليفعلون هذا حقيقة على رافد النهر وفروعه الصغيرة · فهم يغرسون الأعمدة فى قاع

النهر ثم يشدون السلاسل الحديدية من الضفة للضفة المقابلة بطول عرض الرافد ويضعون لافتة خشبية كبيرة على كل شجرة · ولكم يثير غضبى مرأى هذه اللافتات حتى أحس اننى لو رايت صـــاحبها أو من وضـــعها لقتلته ودفنته ووضعت هذه اللافتة البغيضة فـــوق قبره بدلا من شاهد القبر الرخام !

وقد وصفت مشـــاعرى هذه لهاريس الذى عقب بقوله أنه يود لو يفعل اكثر من هذا ·· فقد قال انه لن يقتل واضع هذه اللافتة وحسب ، ولكنه يود لو يقتـــل عائلته كلها ايضا ثم يحرق بيته ويقف على اطلاله ويغنى اغنيات هزلية ·

أوه ، اغنيات هزلية ! انكم لم تســـمعوا ـ أبدا ـ هاريس وهو يغنى أغنياته الهزلية والا لعلمتم أى تهديد مروع هذا الذى توعد به واضع اللافتة · ان من افكار هاريس الثابتة ـ ياسادة ـ هى أنه يعتقد أنه يحسن غناء الأغنيات الهزلية · ولكن ـ ومن بين الأفكار الثابتـــة ايضا ـ لدى أصدقائه الذى سمعوا احدى محاولاتـــه

فى الغناء هى أنه لا يستطيع ولن يستطيع الغناء ولهذا، يجب ألا يسمح له حتى بمجرد المحاولة ٠

فعندما يكون هاريس مدعوا ـ مثـــلا ـ فى حفل ويطلب اليه الغناء فانه يرد بثقة فائقة قائلا :

ـ ولكنى أغنى الأغانى الهزلية فقط كما تعلمون ٠

وهو يقول هذه العبارة ـ طبعا ـ بطريقة توحى بانه لايجب أن تفوتك فرصة سماعه فى احدى أغنياته الهزلية ولو مرة واحدة فى حياتك ٠

ولهذا يقول المضيف بكل عرفان :

ـ أوه ، ان هذا سيكون شيئا لطيفا جدا ، أسمعنا أغنية ياسيد هاريس !

فيقوم هاريس ويتوجه الى البيانو فى سعادة الرجل الكريم عندما يمنح الآخرين شــيئا ذا قيمة ثم يقول المضيف :

ـ من فضلكم السكوت ٠ فالسيد هاريس سيغنينا أغنية هزلية !

وتسمع همهمة تسرى بين الضيوف « أوه ·· ياللها من متعة » · ثم يتوافدون من كل مكان فى البيت ويتزاحمون داخل غرفة البيانو ويتحلقون حول ماريس فى صمت مبتهجين ، ثم ·· يبدأ ماريس الغناء ·

حسن ، انكم على اية حال لن تتوقعوا صوتا جميلا او حسا موسيقيا عاليا ، فالأغانى الهزلية لا تحتاج لمثل هذا عادة · ولن تبالوا اذا وجد المغنى ـ وهو فى وسط غنائه ـ أنه يغنى من طبقة عالية جدا فيسارع بالهبوط فجأة · وقد لاتبالون كذلك ان هو وقف امام البيانو وتوقف عن الغناء واخذ يجادل عازف البيانو ثم يعاود الغناء فجأة ·· ولكنكم على الأقل تحبون أن تسمعوا الكلمات الظريفة التى يغنيها فمن غير المستحب أن نستمع الى مغن لايحفظ من اغنيته اكثر من السطور الثلاثة الأولى من المقطع الأول ، ويأخذ فى ترديدها واعادتها كلما انتهت ·· كما أنكم لا تتوقعون أن تسمعوا المغنى وهو يتوقف فجأة عن الغناء ليضحك ببلاهة ثم يقول :

ـ أوه ، انها فى غاية الظرف ولكن لا أستطيع أن أتذكر بقيتها !

ثم يحاول أن يتذكر فيخفق · حتى يتذكرها فجأة بعد ان شرع فى أغنية أخرى مختلفة تماما فيقطع غناءه ويعود للأغنية الأولى دون كلمة انذار أو تنبيه ·

هكذا كان يسير غناء هاريس.وهو لايدرى أى أحمق يصنع من نفسه ، كما لايدرى مبلغ الضيق والألـــم الذى يسببه لأناس لم يؤذوه أبدا من قبل ·· انه يتصور ـ بأمانة ـ أنه يقدم لهم شيئا مبهجا ·· وعلى هذا ، يعلن بكل فخر أنه سيقدم لهم أغنية أخرى !

ان الحديث عن الاغنيات الهزلية والحفلات ذكرنى بتجربة طريفة تعرضت لها أنا شخصيا ذات مرة ··

كنـــا ـ فى احدى الحفـــلات ـ نمثل مجموعة من الرجال فى غاية الأناقة والذكاء ·· وكنا نرتدى أفخر الثياب ونتحدث بحيوية ومرح ·· هكذا كنا جميعا عدا شابين بدا عليهما القلق والضيق · الحقيقة أننا ـ وهذا ماكنت أتصوره ـ كنا أكثر منهما ذكاء وثقافة ، فلــم

يستطيعا مجاراة أحاديثنا الذكية الرفيعة المستوى ، فاصبحا بذلك خارج الصحبة تماما · كانا معنا وكانهما ليسا معنا ·· وقد وافقني على هذا الرأى كل الحاضرين ·

استمعنا لوسيقى من تأليف عباقرة الموسيقى الألمان وتناقشنا فى الحياة وعن المثل العليا والأخلاق ، وقرا لنا احد الحضور قصيدة فرنسية رائعة ، وبعدها غنت لنا سيدة جميلة أغنية حب اسبانية رقيقة ، وكم كانت جميلة وحزينة حتى أن الدموع قد انهمرت من عينى واحد أو اثنين منا ·· !

بعد هذا سالنا الشابان ان كنا قد سبق لنا الاستماع « للهر » سلوسن بوشين ، الذى كان قد وصل لتوه ونزل مباشرة الى غرفة الطعام ·· وهو يغنى اغنيته الفكاهية الهزلية الألمانية العظيمة ·· انه مدرس ويحمل درجة الأستاذية فى الموسيقى من جامعتهم ؟ !

وعلى قدر ما تذكرنا لم نكن قد استمعنا الى اغنيته هذه من قبل · فقال الشابان انها اظرف اغنية هزلية على

الاطلاق وأضافا أنهما على استعداد لاقناعه بغنائها لنا ان نحن طلبنا ذلك ·

وقالا ـ أيضا ـ أن الاغنية ظريفة لدرجة أنه عندما غناها « الهر » سـلوسن بوشين أمـام الامبراطور الألمانى ذات مرة أغمى عليه واضطر رجال البلاط لحمل جلالته الى مخدعه ·

وزاد الشابان بأن قالا أنه لا يوجد من يسـتطيع أداء هذه الأغنية مثلما يؤديها « الهر » سلوسن بوشين ·· انه يغنيها بوقار وجدية لدرجة يبدو منها كأنه يغنى فى جنازة وهذا يؤدى لانفجار الضحكات أكثر وأكثر ·

فقلنا جميعا أننا فى غاية الاشتياق لسماعها وأننا فعلا فى حاجة لقدر جيد من الضحك ·· ولهذا هبطا الى غرفة الطعام وعادا ومعهما « الهر » سلوسن بوشين ·· وكان يبدو سعيدا جدا لأننا طلبنا منه الغناء وهذه الأغنية بالذات ، لانه صعد بسرعة وجلس مباشرة الى البيانو دون أن ينبس ببنت شفة ·

وأخذ الشابان يهمسـان ـ بالانجليزية ـ وهمـا

يقفان ويتخذان مكانيهما خلف ظهر البروفيسور :

ـ أوه ، انكم ستسعدون حقا ، ولسوف تضحكون من الأعماق ·

وعزف السيد سلوسن بوشـــين المقدمة الموسيقية التى لم تكن تنبىء على الاطلاق بأغنية ضاحكة ·· كانت حزينة ومخيفة بدرجة غريبة ، ولكننا همسنا لبعضـــنا البعض ان هذه هى الطريقة الألمانية ، وهيأنا أنفســـنا للاستمتاع بها ·

فى الحقيقة أننى شخصيا لم أكن أفهم الالمانية جيدا كنت قد تعلمتها فى المدرسة ولكنى نسيت كل ماتعلمته بعد تخرجى بعامين ، وقد شعرت بتحسن ملحوظ بعد هذا ·

لكننى لم أكن أود أن أشعر أيا من الموجودين بهذا النقص فى تعليمى · لهذا خطرت لى فكرة جيدة ، على الأقل بدت لى فكـــرة طيبة ، فقد ركزت بصـــرى على الشابين الواقفين خلف الأستاذ وتتبعت حركاتهما ·· أبتسم عندما يبتسمان ، أقهقه عندما يقهقهان · وأحيانا

كنت اضحك من تلقاء نفسي عندما استشعر شيئا ظريفا ربما فات على الآخرين ·· وكنت أعتبر هذا التصرف غاية فى الذكاء ··

وبمرور الوقت وتتابع مقاطع الأغنية لاحظت أن عيون الآخرين قد تركزت على الشابين واخـــذ الكل يضحكون عندما يضحك الشابان ويبتســـمون عندما يبتسمان وطوال الأغنية ادت هذه الطريقة ـ الذكية ـ مهمتها على أكمل وجه ·

ولكن لم يبد على الأستاذ الألمـــانى اى شـــعور بالسعادة · ففى البداية وعندما بدأنا نضحك بـــدت على وجهه علامات الدهشة وكان الضحك كان آخـر ما يتوقع من صور التحية واظهار الاعجاب بفنه . وقد اعتقدت ان هذا شيء مضـــحك فى حد ذاته ، وقلنـا لبعضنا ان طريقته الصارمة هذه هى روح الأغنيـــة المرحة · وعندما تمادينا فى الضـــحك تحولت أمارات الدهشة على وجهه الى علامات الغضب ثم نظر شذرا الينا جميعا ـ عدا الشابين اللذين كانا يقفان خلف ظهره فلم يرهما · وهذا جعلنا نضحك اكثر بل صحنا أن هذا

سيقتلنا من الضحك ٠٠بل وقلنا أيضا أن الكلمات وحدها بدون تعمد الجدية من البروفيسور وكانت كافية لتغيير ضحكاتنا ٠٠ أوه أن هذا لكثير !

وأنهى البروفيسور أغنيته وسط عاصفة من الضحك وعبارات الاستحسان من قبيل : « ان هذا أطرف ماسمعنا من غناء هزلى » مثلا ٠٠ بل ان بعضنا سأل البروفيسور لماذا لايترجم اغنيته للانجليزية حتى يتسنى لعامة الناس ـ ممن لايفهمون الألمانية ـ أن يعرفوا كلماتها ويتعلمون كيف تكون الأغنية الهزلية بحق ٠

وهنا وقف « الهر » سلوسن بوشين وقد فقد سيطرته على نفسه تماما وأخذ يسبنا بالألمانية محركا ذراعيه فى الهواء فى غضب عنيف موجها الينا كل الألفاظ البذيئة التى يعرفها فى اللغة الانجليزية ٠٠ وقال وهو فى غاية الألم أن أحدا لم يهنه فى حياته مثلما فعلنا ٠٠

واتضح لنا بعد هذا أن الأغنية لم تكن هزلية على الاطلاق . بل كانت تحكى عن فتاة عاشت فوق جبال هارتز وضحت بحياتها لتنقذ حياة من تحب ، ولكنها

ماتت هى الأخرى ٠٠ وتقابلت روحاهما فى السماء ٠٠ وتمضى الأغنية الى أن يفترقا ثانية فى مقطعها الأخير انى غير متأكد تماما من التفاصيل ولكن الأغنية كانت على اية حال غاية فى الحزن بل ان البروفيسور سلوسن بوشين قال انها تعتبر واحدة من ارق القصائد الألمانية واكثر حزنا ٠٠ !

كان موقفا صعبا لنا جميعا ، ولم يكن ثمة مايمكن أن نقوله لنعتذر به ٠ واخذنا نتلفت حولنـــا بحثا عن هذين الشابين الماكرين اللذين أوقعانا فى مثـــل هذا الحرج ٠ لكنهما كانا قد تسللا للخارج بهدوء شـــديد فور انتهاء « الهر » سلوسن بوشين من أغنيته ٠٠

وكانت هذه هى نهاية الحفل ٠ فلم يودع أى منـــا اصدقاءه ، بل هبطنا لأسفل فرادى نمشى بهدوء وبطء وأخذنا من الخدم قبعاتنا ومعاطفنا وفتحنا البابوانتقلنا الى الخارج وكل منا يتحاشى عيون الآخرين ٠ وأبدا ٠٠ ابدا لم احاول سماع اغنيات المانية بعد هذا ٠

عبرنا هاريس وأنا (والتون) حيث أقام قيصـــر معسكره ذات يوم ٠ وعند قنطرة (واى) وجدنا جورج

بانتظارنا .. وقد حياه مونتمورينسى محدثا ضوضاء بينما صحت انا وزمجر هاريس.. وحرك جورج قبعته فى الهواء وصاح يرد على تحيتنا فتجمع الناس بسرعة ظنا منهم ان احدا قد سقط فى النهر . وبدا عليهم الاحباط اذ وجدوا أن هذا لم يحدث !

كان جورج يحمل فى يده حقيبة مستديرة ومفلطحة ولها يد طويلة ملتصقة بها .. فسأله هاريس متهكما :

ـ ماهذا ياجورج ؟ مقلاة ؟

وأجاب جورج بنظرة حادة :

ـ لا انها « بانجو » . ان كان من على النهر يحملون مثلها . انها (مودة) هذا الموسم .

ـ لم أعرفك قط عازفا للبانجو ..

وفى صوت واحد قلنا أنا وهاريس :

ـ هل تفعل ؟ !

فأجاب جورج ببساطة :

ـ لا ، ليس بالضبط . ولكنها شيء سهل جدا .. هكذا قيل لي .. كما أني اشتريت كتابا يعلمنا طريقة العزف ، وأحمله معي !

الفصل الثامن

الليلة الأولى فى القارب

الآن وبعد ان تمكنا من جورج ، فرضنا عليه ان يقوم بشىء من العمل ·· لم يكن بالطبع يريد أن يعمل شيئا واخذ يقول مبررا رفضه ـ أنه مر بوقت عصيب فى المدينة ، ولكن هاريس الذى لم تكن الشفقة من طباعه قال بشماتة :

ـ آه ، الآن حان الوقت لتحصل على بعض الأوقات الصعبة فوق النهر ·· كنوع من التغيير ، ان التغيير مفيد لكل انسان ·· هيا ، قم من مكانك وتعـــال خذ المجدافين ·

لم يكن من الممكن لجورج أن يتهرب من هذا رغم أنه اقترح ـ كوسيلة للهرب ـ أن يقوم هو بعمل الشاى بينما نستمر أنا وهاريس فى التجديف ودفع القارب فوق صفحة الماء ، لأن عمل الشاى ـ كما قال ـ عمل يثير الضيق وأنا وهاريس يبدو علينا الارهاق والاحتياج لكوب من الشاى · الا أن ردنا على هذا الكلام كان القاءنا بالمجدافين نحوه فتلقفهما صاغرا وبدأ يجدف ·

جدف بنا جورج بقوة الى « نبتون هوك » وهناك تناقشنا فى مسألة المبيت · وقررنا أن نبيت على سطح القارب ·· وكان علينا اما أن نتوقف هنا فى « نبتون هوك » أو نواصل السير الى « ستيلز » ·· وبدا لنا أنه مازال من المبكر تغطية القارب بغطائه الآن مادامت الشمس لم تغرب بعد · ولهذا اتفقنا على أن نواصل التجديف الى « رانيميد » على بعد ثلاثة أميال ونصف حيث نجد مكانا تكثر فيه الأشجار حيث نجد ما نستظل ونحتمى تحته ··

ولكم تمنينا بعد هذا لو أننا لم نغادر « بنتون هوك » ·· ان التجديف ضد التيار لمسافة ثلاثة أميال ونصف

قد لايعنى الكثير عندما يكون اليوم فى بدايته ولكن الآن وفى نهاية اليوم يكون شيئا مرهقا خاصة اذا كان اليوم طويلا كالذى مر بنا ··

والانسان فى مثل تلك الحالة لا يشعر بأدنى اهتمام للمناظر الجميلة حوله ·· ولن يتكلم أو يضحك ·· وسيخيل اليه ـ بعد كل نصف ميل ـ أنه قطع ميلين · وغالبا لن يصدق أنه مازال حيث كان وقد يتهم الخريطة بالتخريف !

كانت الساعة قد أصبحت السابعة والنصف عندما وصلنا الى « ستيلز » ·· وأخذ جورج يجدف بهدوء وبطء محاذيا ضفة النهر اليسرى ، باحثا عن بقعة نرسو عندها ·· كنا ننوى أن تذهب الى جزيرة « ماجنا كارتا » الجميلة حيث تهب النسائم العليلة خلال الوادى الأخضر · وكنا نود أن نخلد للنوم فى ركن من النهر هادىء هناك حيث تحمينا الأشجار · ولكننا لم نجد فى أنفسنا ـ فى هذه الساعة ـ نفس الحماس للجمال والهدوء عند « ماجنا كارتا » ـ الذى كنا عليه فى الصباح ·

فكل ماكنا نتوق اليه الآن هو تناول العشاء والنوم العميق ‥ ولكننا على أية حال جدفنا الى الجزيـــرة ودرنا حولها الى ركن رائع تحت شجرة كبيرة ربطنا القارب الى جذورها الممددة على الشاطىء ورسونا ٠

وبعد أن ربطنا القارب الى جذور الشجرة قلنا أننا سنجلس ونتناول طعامنا ولكن جورج أصر على ان نفرد الغطاء فوق القارب قبل أن يحل الظلام ويصبح العمل عسيرا ٠ وبعد ان نؤدى كل ماعلينا من عمل ، نجلس ونتناول طعامنا ببال خال وذهن صاف ‥

احتاج شد الغطاء على القارب لعنــــاء ومجهود اكثرهما تخيل اى منا ٠ فقد كان الأمر يبدو بسيطا عند أول نظرة ، فما عليك الا ان تأخذ ثلاث حلقات حديدية مجهزة وتثبتها فى القارب فى الثقوب المعدة لها ، ثـم تشد الغطاء فوقها وتثبته فيها ‥ هكذا لن يســتغرق العمل اكثر من عشر دقائق ٠ او أن هذا هو ما ظنناه فى البداية وما اسرع ماتبدى لنا سوء تقديرنا ٠

فقد اخذنا الحلقات الحديدية وبدأنا نضــعها فى

الفتحات المخصصة لها ·· بالطبع أنتم لاتعتبرون هذا العمل من الأعمال الخطرة · ولكننا ـ نحن ـ عندما نعود بذاكرتنا لما حدث فى ذلك اليوم نعجب أن أحدا منا قد بقي على قيد الحياة ليروى هذه القصة الآن ·

رباه ! انها لم تكن حلقات ·· بل كانت أرواحا شريرة · فى البداية رفضت أن توضع فى مكانها باحكام ·· فكان علينا أن نقفز فوقها كلها ، وندق عليها بمطرقة القارب ·· وبعد أن استقرت فى أماكنها اكتشفنا أننا لم نضع حلقة فى مكانها الصحيح ·

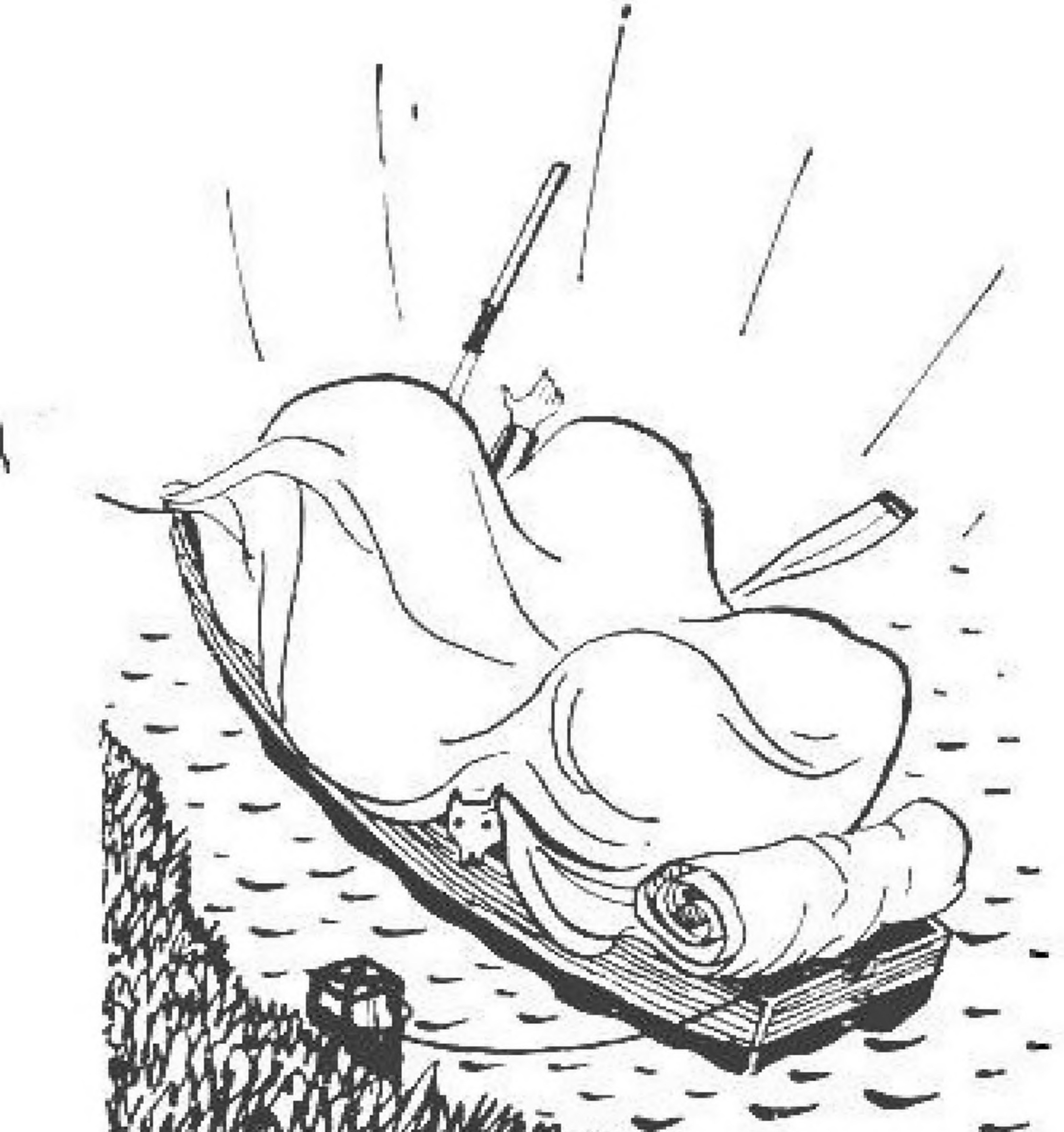
ولم تخرج الحلقات من الفتحات الخطأ الا بعد أن تعارك اثنان منا معها لمدة خمس دقائق ، بعدها قفزت خارجة فجأة محاولة أن تلقى بنا فى النهر ·· !

ومرة أخرى بدأنا نثبتها ـ فى أماكنها الصحيحة هذه المرة ـ وكنا كلما طرقنا على طرف الحلقة لنثبته ، ضربنا الطرف الآخر فى رؤوسنا · وأخيرا تم لنا تثبيتها ·· ثم كان علينا أن نعانى مثل ماعانينا وأكثر لتثبيت الغطاء فى الحلقات ·· فقد فرد جورج الغطاء

وثبت أحد طرفيه فى مقدمة القارب بينما وقف هاريس فى المنتصف ليأخذ الغطاء من جورج ويمرره لى حيث كنت أقف عند مؤخرة القارب لاستقباله · ولكن الغطاء استغرق وقتا طويلا ليصل الى !

فبعد أن أدى جورج نصيبه من العمل وقام به خير قيام جاء الدور على هاريس الذى كان ماكلف بـه من عمل جديدا عليه ·· وبشكل ما ـ لايزال غامضا ـ استطاع هاريس أن يجعل الغطاء يلتف حوله وأصبح سجينا داخله · وأخذ يضرب برجليه ويديه ويتحرك بعنف ليتخلص منه دون جدوى · وأثناء حركته هذه رفس جورج الذى أخذ يتعارك بدوره فأوقع نفسه فى نفس الفخ ·· !

أنا لم أدرك هذه القصة وقت وقوعها ، وشخصيا لم أفهم ماكان يحدث · فقد طلب منى أن أقف عند ذيل القارب وأنتظر الغطاء · وهذا ما فعلت · فقد وقفت ـ أنا ومونتمورينسي ـ ننتظر فى منتهى الصبر بالطبـع كنا نرى الغطاء وهو يجذب ويلقى ويرفس ، ولكنـــى



محاولة وضع الغطاء على القارب !

ظننت أن هذا جزء من الطريقة التى يجب اتباعها لتثبيته ولهذا لم أتدخل فيما يحدث ٠

وانتظرت حتى طال بى الانتظـــار وبدا أن الموقف يزداد تعقيدا ، حتى ظهرت رأس جورج من تحت الغطاء عند طرف القارب وسمعته يقول :

ـ الا تمد لنا يد المساعدة أيها الأحمـــق بدلا من الوقوف هكذا غارقا في احلامك ٠ متى يمكنك أن تدرك أننا نكاد نموت مخنوقين ومحاصرين فى هذا الغطاء ٠

وبما أنى لم أتأخر أبدا عن نجدة ملهوف يستنجد بى ، فقد أسرعت وخلصتهما من الغطاء ٠ ويبدو أنـــى وصلت فى الوقت المناسب تماما ، لأن هاريس كان قد بدأ يزرق !

وبعد كل هذا ، استغرق الأمر منا أكثر من نصف ساعة أخرى من العمل الشاق حتى أصبح الغطاء فى مكانه الصحيح ٠٠ ثم نظفنا المكان واعـــددنا طعـام العشاء ، فوضعنا الغلاية على الموقد عند مقدمة القارب وذهبنا لنجلس عند ذيله ، فهذه هى الطريقة المثلى لكى

تجعل الغلاية تعمل ، لأنها لو أحست أنك ترقبها انتظارا لان يغلى مابها لن تفعل ابدا ·· اذن عليك أن تذهب بعيدا وتأخذ فى تناول طعامك وكأنك لن تتناول شايا يصنع بالغلاية بالمرة ، وعليك الا تراقبها أو حتى تدير عينك ناحيتها · وهكذا سرعان ماستسمعها تصفر فى اشتياق مجنون لأن يصبح ماؤها الذى يغلى شايا ··

وقد استعملنا هذه الطريقة فكانت النتيجة جيدة · وفى الوقت المضبوط كان كل شىء معدا ثم اوقدنا المصباح وجلسنا للعشاء ·· كم كنا فى حاجة لهذا العشاء !

وطوال خمس وثلاثين دقيقة ، لم يكن هناك صوت الا صوت السكاكين والشوك وصوت أسناننا وهى تطحن الطعام · **وأخيرا قال هاريس :**

ــ آه !!

ثم أخرج قدمه اليسرى من تحته ووضع بدلا منها قدمه اليمنى ، وبعدها بخمس دقائق **قال جورج :**

ــ آه !!

وألقى بصحنه فوق ضفة النهر ، ثـــم وبعد ثلاث دقائق أخرى اظهر مونتمورينسى أول علامة من علامات الرضاء منذ بدأنا الرحلة • ثم قلت أنا :

ــ آه !!

وارتميت على ظهرى !!

ان المرء ليأخذه العجب من سيطرة المعدة على الانسان • اننا لانستطيع أن نعمل أو نفكر الا اذا سمحت لنا معدتنا بذلك ، اننا عبيد بطوننا ، واذا نحن نظرنا اليها بعين العناية فسيكون النشاط والحيوية والرضا نصيب قلوبنا •

فقبل العشاء كنا جميعا ــ جورج وهاريس وأنا ــ حادى الطباع تغلب علينا الطبيعة البرية الشرسة •• وبعد العشاء أصبحنا فى غاية الوداعة نتسامر ويبتسم كل منا فى وجه أخيه بل وابتسمنا حتى فى وجه الكلب •• انتابنا شعور بالحب لبعضنا البعض ، بل الحب لكل البشر ••

فمثلا ، تدهس هاريس قدم جورج أثناء حركته ، وبدلا من أن يقول بصـــوت كريه « أن المرء لابد أن يتعثر بجزء من قدم جورج أينما تحرك في دائرة قطرها عشر ياردات من المكان الذى يجلس فيه » **قال بصوت رقيق :**

ـ أوه ، انني أسف ياصديقى القديم ، أرجو الا أكون قد سببت لك اى الم !

ورد عليه جورج بصوت أرق :

ـ لا ، على الاطلاق ، الغلطة كانت غلطتى أنا !

ورد هاريس :

ـ لا ، انها غلطتى أنا بالتأكيد .

وكم يكون جميلا ومؤثرا أن تستمع لهذه المحادثة بينهما !

بعد العشاء ، أشعل كل منا غليونه وجلسنا فى استرخاء نرقب الليل الساكن ونتحدث ثم خلدنا للنوم في العاشرة مساء ، وكنت أعتقد أنى سأنام جيدا بعد

عناء هذا اليوم الطويل • ولكن للأسف لم يحدث ، فقد غفوت لسويعات ثم اخذ شـــىء ما ـ نبت فجاة فى القارب لانه لم يكن موجودا عندما بـدأنا ، كما انـــه اختفى فى صباح اليوم التالى ـ أخذ هذا الشىء يدفعنى فى ظهرى وقد نمت برغمه لبعض الوقت وحلمت بأنــى قد ابتلعت عملة ذهبية ، وأنهم كانوا يحاولون فتح ثقب فى ظهرى لاستخراجها ، وقد فكرت ان هذا تصرف غير كريم منهم ، وقلت لهم سأعطيهم مايعادل هذه العملة من النقود ولكنهم لم يسمعوا لى واستمروا فى عملهـــم بخشونة وقسوة حتى استيقظت ••

وبدا لى جو القارب خانقا وكان راسى قد انكسر •• ففكرت أنه يحسن بى أن انزل الشاطىء لأتنسم هواء الليل البارد ، فارتديت أى ملابس وجدتها كيفما اتفق ، بعضها تخصنى وبعضها تخص اما هاريس أو جورج وتسللت من تحت الغطاء ونزلت الى الشاطىء ••

كانت ليلة رائعة غاب فيهـــا القمر وترك الأرض وحدها مع نجوم الســـماء • ليلة تملؤهـــا الرفاهية

والحيوية جعلت احساسى الضـــئيل بالحزن يزحف منسحبا فى خجل ٠٠ليلة حانية مسحت بيدها الرقيقة على راسى المسكين قصرت بعد قليل قادرا أن أعود للقارب فى سلام وأسافر فى احلام النوم الهادىء ٠

الفصل التاسع

الصباح التالى

صحوت فى السادسة صباحا لأجد جورج قد استيقظ هو الآخر · واخذنا ـ كلانا ـ نتقلب فى الفراش استجداء لمزيد من النوم . ولكن دون فائدة ·· لم يكن هناك اى مبرر لاستحالة الاستمرار فى النوم هاكذا . بل لقد كان من الأحرى بناولنا أن نسقط فى نوم عميق حتى العاشرة صباحا على الأقل · فالاستيقاظ الآن فى هذا الوقت المبكر دون داع لذلك يعد ضربا من الحماقة ·

وقد أخبرنى جورج أن نفس هذا الموقف ـ وربما أسوأ منه ـ قد حدث له منذ عام ونصف تقريبا ··

عندما كان يعيش بمفرده لدى مسز « جيبنجز » ·· فقد حدث أن تعطلت ساعته ذات ليلة وتوقفت عند الثامنة والربع ، ولم يعرف بهذا في وقته لسبب أو لآخر ، ربما لم يملأها قبل أن ينام وعلقها فوق وسادته دون أن يلقى عليها ولو نظرة عابرة ·

كان الوقت شتاء ، والنهار قصيرا جدا · وقد مر بلندن أسبوع ذو طقس مشبع بالضباب لهذا فلم يكن الظلام الذى كان يلف الدنيا ـ عندما استيقظ جورج من نومه هذا الصباح ـ يعنى أى شىء ولم يكن يشير الى الوقت بأى مؤشر · ولهذا فقد رفع جورج يده وأخذ ساعته ونظر فيها فوجد عقاربها تشير الى الثامنة والربع !

فصاح جورج فزعا :

ـ ياللسماء ! اننى يجب أن أكون بالمدينة عند حلول التاسعة تماما · لماذا لم يوقظنى أحد ؟ أوه ، ياللعار !!

ثم ألقى بالساعة جانبا وانتفض ناهضا من الفراش وأخذ حماما باردا وحلق ذقنه بالماء البارد فلم يكن ثمة

وقت لانتظار الماء الساخن . وارتدى ثيابه بسرعة وألقى نظرة اخرى على الساعة التى كانت ـ ونتيجة للصدمة التى تلقتها عندما رمى بها جانبا ـ قد بدأت تتحرك فوجد عقاربها تشير الى التاسعة الا الثلث

أخذ جورج ساعته واسرع هابطا . وفى غرفـــة الجلوس وجد ان كل شىء هادىء ومظلم .. فلا نار فى المدفأة ولا افطار معد على المائدة . حتى قال فى نفسه : ياللعار .. ثم قرر ان يواجه السيدة « جى » بحقيقة رأيه فيها عندما يعود فى المساء .. ثم وبسرعة ارتدى معطفه واخذ قبعته واختطف مظلته واندفع الى بـــاب الخروج .. كان الباب لايزال مغلقا بالمزلاج فاخذ جورج يسب مسز « جى » ويصفها بأنها امرأة عجوز كسولة بينما كان يفتح الباب ويعدو خارجا ..

واخذ يعدو بقوة حتى قطع مسافة تقرب من ربع الميل . وقد ادهشه ان يجد الشوارع خالية الا من بضعة أناس يسيرون فرادى هنا وهناك . كما ان كل المحلات كانت مغلقة .. صحيح أن هذا الصباح كان صباحا داكنا ولكن ليس من الطبيعى أن تتوقف هكذا كل الأعمال

ويمكث الناس على أسرتهم تحت أغطيتهم لمجـــرد أن الصباح فى لندن يلفه الضباب ..

أخيرا وصل الى هولبورن . ووجد كل الدكاكين مغلقة ولم يظهر اتوبيس واحد فى الأفق .. فقط كان هناك ثلاثة رجال . واحد منهم كان الشرطى ورجل فى عربة مملوءة بالخضراوات ، وعربة أجرة قديمة .. اخرج جورج ساعته ونظر فيها فوجدهـا تشـــير الى التاسعة الا خمس دقائق فتوقف مكانه وامسك برسغه واخذ يعد نبضات قلبه ثم انحنى واخذ يتحسس رجليه . ثم ـ وهو لايزال ممسكا بساعته ـ توجه الى الشرطى وساله عما اذا كان يعرف كم تكون الســـاعة الآن .

ولكن الشرطى نظر اليه فى ارتياب وقال له :

ـ كم الساعة ؟! لو انك أصغيت لسمعت دقاتها .

وبالفعل أصغى جورج فسمع ساعة مجاورة تدق ثلاث دقات فقال جورج غاضبا ومندهشا :

ـ ولكنها لم تدق سوى ثلاث دقات فقط !

ـ حسن ، وكم تحبها أن تدق اذن ؟

ـ انها يجب أن تدق تسع دقات !

قالها جورج وهو يشير الى ساعته · فسأله الشرطى في حدة :

ـ ياهذا ·· هل تعرف عنوان بيتك ؟

وبالطبع كان جورج يعرف عنوان بيته بل وأعطى العنوان للشرطى الذى قال :

ـ آه ·· حسن اذن ، استمع الى نصيحتى وعد لبيتك بهدوء وخذ ساعتك هذه معك وحبذا لو أرحتنا منها الى الأبد ·

وفى البداية وفور عودتـــه للبيت قرر جورج أن يخلع ملابسه ويعود للفراش لينام ثانية ولكنه عندما فكر فى أنه سيكون عليه أن يرتدى ملابسه ثانية ويأخذ حماما أخر قرر الا يخلع ملابسه وأن يذهب لينام على كرسى وثير ·

الا أنه لم يستطع النوم ، فقد كان متيقظا جدا ، بل أنه لم يشعر فى حياته أنه اكثر يقظة من الآن ·لهذا

اضاء المصباح واخرج بعض أوراق اللعب واخذ يلاعب نفسه ولكن هذا لم يرضـــه ايضـــا فاقلـــع عن اللعب واستبدل به القراءة ، ولكنه لم يجد فى نفسه أية رغبة فى القراءة فارتدى معطفه ثانية وخرج ليتمشى قليلا ٠

كان الطريق موحشا ومخيفا ، وكان كل من يصادفه من رجال الشرطة ينظر اليه فى ريبة وشك ٠٠ وكانوا يضيئون مصابيحهم فى وجهه ، بل ويسيرون وراءه ، مما جعله يشعر بأنه مثل من ارتكب جريمة ومطلوب من قبل العدالة فأخذ يتسلل هاربا الى الشوارع الجانبية ليختبىء خلف اى باب يقابله اذا ماسمع وقع اقــدام شرطى يقترب منه ٠٠

وطبيعى ان هذا التصرف وحده كان كفيلا ان يثير شكوك الشرطة اكثر من اى شىء آخر فكانوا يجذبونه من خلف الأبواب التى يختبىء وراءها ويوجهون اليه الأسئلة العنيفة عما كان يفعله فى هذا المكان ، وعندما كان يجيب بـ « لاشىء » ويقول انه قد خرج فقط ليتمشى قليلا (كانت الساعة الرابعة صباحا) فكانوا ينظرون



جورج يختبيء من رجل الشرطة :

اليه غير مصدقين ، بل ان شرطيين اصـــطحباه الى عنوان بيته ليتأكدا اذا كان حقا يسكن فى هذا البيت أم انه يدعى ، وهكذا حتى فتحْ الباب بمفتاحه ووقفا أمام البيت يرقبانه ٠

عندما دخل جورج الى بيته فكر فى ان يشعل النار ويعد طعام الافطار لنفسه ، فقط ليستهلك بعض الوقت ٠٠ ولكن بدا عليه أنه غير قادر على عمل أى شىء ، فعليه أن يخطو فوق دلو الفحم حاملا ملعقة الشاى دون أن يقع فى الدلو أو يقع هو فوقه فيحدث ضجة توقظ السيدة (جى) فتظن أن هناك لصا بالبيت فتصرخ من النافذة تنادى على رجال الشرطة فيندفع الشرطيان الواقفان بالباب الى الداخل ويقبضان عليه ويسوقانه الى المحكمة ٠

كان جورج قد أصبح فى حالة عصبية يرثى لها وأخذ يتخيل المحاكمة ومحاولاته المستميتة فى شـــرح الحقائق للقاضى ٠ وبالطبع لن يصدقه أحد وسيحكمون عليه بالسجن عشرين عاما وستموت أمه حسرة عليه ٠ وبعد كل هذه الأفكار السوداء أقلع جورج عن فكرة

اعداد طعام الافطار ولف نفسه فى معطفه وجلس على المقعد ذى الذراعين حتى نزلت السيدة (جى) فى السابعة والنصف · ومنذ هذا التاريخ اقسم الا يصحون من نومه مبكرا فقد كان ماحدث بمثابة تحذير له ·

كنا نجلس ملفوفين فى اغطيتنا بينما كان جورج يروى قصته هذه . وبعد أن انتهى وكزت هاريس بالمجداف لكى أوقظه · وقد استغرقت عملية ايقاظه وقتا طويــلا ولكنه أخيرا استوى جالسا فجأة مرسلا مونتموريسى الذى كان ينام على صدره الى أخر القارب ·

بعد هذا رفعنا الغطاء ووضــعنا رؤوســـــنا على جوانب القارب ونظرنا الى الماء ـ نحن الأربعـــــة ـ فارتعدت أوصالنا · فبالأمس اتفقنا على أن نصـــــحو مبكرين ونقذف بالأغطية ثم نلقى بأنفسنا فى أحضـــان الماء مصحوبين بصيحات السعادة · ونستمتع بسياحة طويلة منعشة · الا اننا ولسبب ما عندما جاء الصباح ، بدت لنا هذه الفكرة أقل جاذبية فالماء كان يبدو مظلما وباردا والرياح حولنا تجمد النخاع فى العظام !

واخيرا قال هاريس ٠

ــ حسن من سيكون أول القافزين الى الماء ؟

وبالطبع لم يكن ثمة تسابق لنيل هذا الشرف ، بل ان جورج قد أعلن عن نياته عندما ارتد جالسا وارتدى جوربه ونبح مونتموريتسى نباحا بائسا وكان فكــره السباحة في الماء البارد ــ مجرد الفكرة ــ قد سببت له ألما عظيما ٠ وقال هاريس انه سيكون من الصــعب أن يجد سرواله بعد أن يعود الى القارب ٠

ولما لم يكن من طبعى الاستسلام ، ولأنى لم أستطع تقبل فكرة الغطس فقد قررت أن أنزل الى ضفة النهر وأنثر الماء على جسمى ٠ فأخذت منشفة معى وأخــذت أزحف على جزع شجرة يتدلى نحو الماء ٠ كان البرد قارسا والرياح الثلجية تقطع فى جسدى كالســكين ففكرت في العودة دون أن أضع قطرة ماء على جسمى أرجع للقارب وأرتدى ملابسى فى الحال ٠٠ هذا أفضل ٠ ولكن وبينما أنا أستدير عائدا اذا بالفرع الغبى ينكسر فاسقط أنا ومنشفتى فى الماء محدثا جلبة شديدة مثيرا

نافورة من الماء الى اعلى ، وهكذا وفجاة وقبل ان ادرك ماحدث كنت فى قلب التيار وجسدى يتعامل مع مياه نهر التيمس ·· وبينما انا اجاهد الماء سمعت هاريس يقول :

ــ ياالهى لقد فعلها هذا العجوز ·· لم اكن اتصور أن لديه الشجاعة الكافية ليفعل هذا ، أكنت تتصــور هذا ياجورج ؟

وصاح جورج موجها كلامه لى :

ــ هل أنت بخير ؟ أكل شىء على مايرام ؟

ــ بل ممتع ، انكم حمقى فعلا لأنكم لم تنزلوا معى الى الماء · اننى لم أكن لأضيع هذه الفرصة بأية حال من الأحوال · لماذا لاتحاولون ، ان كل ماتحتاجونه هو قدر ضئيل من العزيمة ·

ولكن ــ وبرغم كل تلك الكلمات المشجعة لم أستطع ان أقنعهم بالاقدام على النزول الى الماء ·

بعد هذا وبينما كنا جميعا نرتدى ثيابنا هذا الصباح حدث شىء مضحك · فقد لكنت أشعر ببرد شديد حينما

عـــدت للقارب ـ بعد ســــباحتى الاجباريه ـ ونتيجة لارتعاشي واستعجالي انزلق قميصي من يدى وســـقط فى الماء فجن جنونى فى الوقت الذى انفجر فيه جــورج ضاحكا · ولم اجد سببا واحدا لهذا الضحك · وقلت لجورج أن قهقهته هذه ليس لها مبرر · ولكنه لم يرد الا ان تمادى في ضحكاته الهيستيرية ·· اننـــى لـم اصادف فى حياتى رجلا يضحك كثيرا بسبب وبدون سبب كجورج ، وقد صارحته برأيى فيه فقلت له أنه رجل أحمق بلا عقل ، ولكن هذا لم يروعه واستمر يقهقه ·

وبينما أنا أنتشل القميص من الماء اكتشفت انه ليس قميصى بل ·· قميص جورج ! فقد كنت أحاول ارتداء قميص جورج ظنا منى انه قميصى نتيجة استعجالى · وهكذا بدت لى طرافة الموقف لأول مرة فأخذت أضحك وكلما نقلت بصرى بين وجه جورج الضاحك وقميصه الذى يقطر ماء ازداد اغراقا فى الضحك . حتى سقط منى القميص فى الماء ثانية ، **فقال لى جورج من خلال قهقهته :**

ألن · ها ·· ها ·· ألن تخرجه من الماء ؟

ولم استطع ان اجيبه على سؤاله فى الحال لأنى لم أكن استطيع امساك نفسى عن الضحك واخيرا ! استطعت أن اقول له من خلال ضحكاتى :

- انه ليس قميصى .. بل - بل هو قميصك انت . ها .. ها .. ها .. !!

ولم ار فى حياتى وجه انسان يتحول من الضحك الى الغضب بمثل هذه السرعة فقد صرخ جورج :

- ماذا ؟ أيها الحمار الغبى ! لماذا لاتستطيع أن تكون اكثر عناية بالاشياء ؟ لماذا لم تأخذ ملابسك وتذهب لترتديها على الأرض ؟ أنت لست اهلا لتبقى على ظهر قارب .

حاولت أن أجعل جورج يرى مدى طرافة الموقف . لكنه لم يستطع فجورج يصبح احيانا رجلا لا يقدر على فهم الدعابة وتقبلها .

اقترح هاريس أن نقلى بعض البيض للافطار . وتطوع للقيام بذلك .. فمن وجهة نظره أنه كان يجيد

قلى البيض · وهو يقوم عادة بهذا العمل عندما يبحر مع أصدقائه لدرجة أنه أصبح مشهورا به · ان من يتذوق ـ حسب كلامه ـ بيضه المقلى ولو مرة يصير لايشتهى أى لون آخر من الوان الطعام ، بل قد يعاف كل شيء ويظل ينحف وينحف حتى يكاد يموت ان لم يأكل ثانية من بيض هاريس المقلى ·

وجعلتنا قصص هاريس عن البيض المقلى نشـــعر بالجوع فعلا ، فأعطيناه الموقد والمقلاة وما تبقى من البيض ، الذي تكسر معظمه ولوث بقية الأشياء التى فى السلة ، ثم تضرعنا الى هاريس أن يكف عن الكلام ويبدأ فى قلى البيض ·· وقد واجه بعض الصعوبـة في تكسير البيض ، فى الحقيقـة ليس فى تكســــيره بالتحديد ، ولكن فى تكسيره دون أن يلوث سرواله وفي وضعه داخل المقلاة بالضبط · اخير استطاع أن يضع ست بيضات في المقلاة وجلس بجوار الموقـد يقلبهـــا بالشوكة ·

وقد بدا عمله متعبا ـ على حسب تصــــورى أنا

وجورج ـ فقد أحرق هاريس نفسه عندما اقترب من المقلاة وهى على الموقد ، فألقى بكل شىء فى يده وأخذ يرقص حول الموقد وهو يهز أصابعه فى الهواء ويصرخ وكنا كلما نظرنا ناحيته نجده يفعل نفس الشىء فظننا أن هذا طقس من طقـــوس قلى البيض التى تعلمهـــا هاريس ·

فلم نكن ندرى بالضبط أى نوع من البيض المقلى يصنع هاريس ، وقد خمنا أنه ربما يكون طبقـــا من أطباق الهنود الحمر ويستدعى صنعه نوعا معينا من الرقص بالاضافة الى بعض الكلمات الســـحرية حتى يطهى جيدا · وبدا الأمر كله من اكثر الأمور اثارة ، وقد حزنا ـ أنا وجورج ـ كثيرا حينما انتهى هاريس من صنعه أخيرا ··

ولكن لم تكلل ـ على مايبدو ـ جهـــود هـــاريس بالنجاح الذى كان يتوقعه · فقد كان النجاح بنســـبة ضعيفة اذا قورن بالجهود الشاقة التى بذلها هاريس ، فقد وضع ست بيضات فى المقلاة وكان كل ماخرج لنا هو مقدار ملعقة من خليط محروق ··

قال هاريس أن الخطأ كان خطأ المقلاة وأن الطبق كان سيخرج أفضل من هذا بكثير لو أننا أحضرنا معنا مقلاة من نوع معين وموقد غاز · ولهذا قررنا ألا نحاول صنع هذا الطبق ثانية حتى نحضر هذه التجهيزات التى طلبها هاريس ··

وبعد انتهائنا من تناول الافطار ، كانت الشمس قد ازدادت سطوعا وهبطت حدة الرياح وصـــار الطقس كابدع مايتمنى الانسان ··

كان كل ماحولنا يذكرنا بالقرن الثالث عشر · وبينما كانت ابصارنا ترى النهر خلال أشعة الشمس الذهبيـة تخيلنا وكأن القرون قد انطوت حتى عادت بنا الى ذلك الصباح الخالد من شهر يونيو عام ١٢١٥ ·· وتخيلنا أننا أبناء فلاحين انجليز نرتدى ثيابا من الغزل الوطنى اليدوى ونقف هناك لنكون من شهود كتابة هذه الصفحة المجيدة من التاريخ ، عندما أجبر الملك « جون » على التوقيع على « الماجنا كارتا » أو « اللوحة العظيمة » التى صارت حجر الزاوية فى معبد الحرية فى انجلترا

وأخذت أتخيل المنظر فى هذا اليوم العظيم وماحدث ساعة بساعة ، فعند المرسى الذى يمتد بطول الشاطىء من « ستينز » ·· كانت تسـير مجموعات من رجـال الجيش ممتدة حتى آخر مايستطيع البصر أن يمتد ·· وكان الطريق يبدو سميكا مزدحما بالصلب اللامـع والخيل المطهمـة · وكان صياح الفرسـان يعلو من مجموعة الى أخرى والأعلام الصغيرة تتماوج فى الهواء بكسل · ومن وقت لآخر يحدث اضطراب أعمـق فى الصفوف عندما تتحرك الجموع لتفسح الطريق ليمر أحد السادة العظام فوق جواد الحرب محفوفا بحرسه من الفرسان فيتقدم ويأخذ مكانه على رأس رجاله ·

أما فوق التل وفى المواجهة تماما ، كانت تقـف جموع القرويين المبهورون وأهل المدينة الفضوليون · وكل فرد لديه قصة يرويها عن الحدث الذى جاء خصيصا لمشاهدته · البعض يقول أن خيرا عظيما سيعم البلاد من جراء ما سيحدث الليلة ، بينما يهز بعض الرجال المسنين رؤوسهم غير مصدقين فياطالما سمعوا مثل هذه الحكايات من قبل دون تغيير حقيقى ·

كان النهر كله حتى بلدة « ستينز » مبرقشا بالقوارب المتناثرة ، تتزاحم حتى أن بعض القوارب جرؤت على الاقتراب من البارجة التى ستقل الملك جون شخصيا الى المكان الذى تنتظر فيه اللوحة الكبرى توقيعه الخالد ٠

وعند الظهر ، عند بداية المرسى ، تبدأ سحابة ترابية صغيرة تتصاعد ثم تكبر وتقترب اكثر فأكثر ويعلو صوت الجلبة التى تثيرها الخيل ٠٠ يعلو ويعلو ٠ ومن هنا وهناك تبرز مظاهرة رائعة من الفرسان والسادة العظام يتزيون بأزياء ذات ألوان زاهية مبهجة ٠ بينما فى الخلف وفى الأمام وعلى الجوانب ، كان يقف آباؤنا صانعين ممرا للسادة وفرسانهم ، وفى وسط الجميع كان الملك جون ٠

كان الملك يمتطى صهوة جواده متوجها الى حيث تقبع البارجة الملكية على أهبة الاستعداد ، بينما توجه السادة الكبار لاستقباله ٠ فحياهم بابتسامة ثم ضحكة وبضع كلمات المجاملة ، وكأنما هو مدعو لحفل أو لعيد أقيم على شرفه ٠ ولكن ما أن استقر بفرسه حتى

مرق بسرعة ودار خلف فرسانه الفرنسيين يحتمى بهم ويوجههم فى اتجاه الصفوف المجيدة التى يقف فيها السادة العظام الذين احاطوا به ٠٠

ولكن الوقت كان قد فات لمثل هذا ! وفجأة انطلق نفير رهيب من احد الفرسان فى جانب الملك أعقبه صيحة على جنوده والفرنسيين ثم هجمه شرسة على صفوف السادة العظام غير المستعدين لمثل هذه الحركة ٠ وربما شعر هؤلاء اللوردات بالأسف لأنهم عارضوا خطة الملك وربما كان سيكتب لكأس الحرية أن ينكسر وهو على شفتى انجلترا ويبقى لها ـ لانجلترا ـ مذاق الحرية على شفتيها مئات السنين

ولكن قلب الملك جون انهار وارتجف أمام وجوه الجنود الانجليز القاسية ٠ وتقهقر جيش الملك عائدا الى مكانه ٠٠ اما الملك فقد نزل عن صهوة جواده واتخذ له مقعدا على البارجة الملكية بينما كان السادة يتبعونه رايديهم فوق سيوفهم ٠ ثم أعطى الأمر للقافلة بالتحرك ٠

وببطء شديد أخذت البوارج الثقلية تغادر شواطىء

« رانيمير » ٠٠ وأخذت تسير حثيثا ضد التيار حتى وصلت الى ضفاف الجزيرة الصغيرة التي حملت ومنذ ذلك الوقت اسمها الشهير (الماجنا كارتا) حيث نزل الملك جون من بارجته وتوجه الى اللوحة العظيمة بينما كان الناس يقفون حابسي الأنفاس في ترقب مهيب، الى أن شقت عنان السماء صيحة عظيمة تعلن عن وضع حجر الأساس في بناء الحرية في انجلترا ٠٠ !

الفصل العاشر

مغامرات مع قارب وعلبة من الصفيح

بينما انا جالس على ضفة النهر سابحا فى خيالاتى مع هذا المشهد العظيم ، اذا بجورج ينادينى قائلا بسخرية أنى اذا كنت قد اخذت وافرا من الراحة ، فبالتأكيد لن أمانع فى أن أعاون فى عملية الغسيل .. وهكذا وبما أنى قد انتزعت بهذه الطريقة من ذكريات الماضى المجيد الى واقع الحياة العادية ، فقد انزلقت الى القـــارب وأخذت أنظف المقلاة بواسطة عصا وحفنة من الأعشاب البحرية ثم مسحتها بقميص جورج المبلول

بعد هذا ذهبنا الى جزيرة (ماجنا كارتا) والقينا نظرة على الحجر الذى ينتصب داخل كوخ هناك والذى يقال أن الوثيقة العظيمة قد وقعت عليه · ثم عدنا الى القارب وبدأنا الاستعداد لاستكمال رحلتنا ·

كانت المسافة من الجزيرة الى هويس « وندسور » القديم منطقة جميلة من النهر ·· فالطريق يمتد طليلا مع ضفة النهر وقد تناثرت عليها هنا وهناك أكواخ صغيرة جميلة ·· ان « وندسور القديمة » تعتبر مكانا شهيرا · فقد امتلك الملك « ادوارد المعترف » ـ المتوفى سنة ١٠٦٦ ـ قصرا فى هذا المكان ·· وهنا أيضا ثبت أن « ايرل جودوين » كان مذنبا فيما نسبته اليه محكمة هذا العصر من تهمة قتل شقيق الملك · فقد وقف « ايرل جودوين » ممسكا بقطعة كبيرة من الخبز فى يده قائلا أنه اذا كان حقا مذنبا فان قطعة الخبز هذه ستلتصق بحلقه وتقتله·وبالفعل وضعها فى فمه وحاول أن يبتلعها ولكنها علقت بحلقه وأغلقته فمات مختنقا ·· !

بعد أن تجاوزنا (وندسور القديمة) اصبح النهر

معلا الى حد ما · ولهذا جدفنا بالقارب ، أنا وجورج ، حتى وصلنا الى جزيرة (مونكى) أو جزيرة القرد ·· حيث توقفنا لتناول الغداء · وقد قررنا أن نتناول لحم البقر البارد ، ثم اكتشفنا اننا لم نحضر المستردة · ولا أعتقد أنى قد شعرت برغبة فى تناول المستردة مثلما شعرت فى ذلك اليوم · اننى لا أهتم ـ عادة ـ بوجود المستردة ، بل انى قد توقفت عن أكلها تماما منذ فترة · ولكنى كنت على استعداد لأن أدفع (أى شىء) مقابل بعض المستردة فى ذلك اليوم !

وقال هاريس هو الآخر أنه على استعداد لأن يدفع (أى شىء) مقابل بعض المستردة وكذا قال جورج ·· أوه ·· انه ليكون يوم السعد لأى انسان يتصادف مروره بنا وهو يحمل بعض المستردة فقد كان سينال من (أى شىء) مايكفيه العمر كله ·

شعرنا بتعاسة شديدة لعدم وجود مستردة ، فأكلنا اللحم البقرى فى صمت حزين · بينما بدت لنا الحياة عبثية خالية من المتعة · وأخذنا نتذكر أيام الطفولة السعيدة ونتحسر · ولكن حالنا انقلبت الى السرور

عندما أخرج جورج علبة فاكهة من قاع السلة ، فقد كنا جميعا نحب الفاكهة المحفوظة ونظرنا الى الصورة المطبوعة على العلبة ثم نظر كل منا للآخر فى سعادة بينما جهز هاريس ملعقته ·

ثم بدأنا البحث عن فتاحة العلب ، فأخرجنا كل شىء كان فى السلة · ثم كل شىء كان فى الحقيبة بل لقد انتزعنا ألواح قاع المركب ثم حملنا كل شىء الى ضفة النهر وأخذنا نهزه بعنف علنا نجدها ولكننا لم نعثر على فتاحة العلب ··

بعد هذا حاول هاريس أن يفتح العلبه بمطواة الجيب فكسر المطواة وجرح نفسه ·· ثم حاول جورج فتح العلبة بواسطة المقص ولكن المقص طار من يده وكاد أن يخرق عينيه ، وبينما جلسا يداويان جرحهما كنت أنا أحاول أن أصنع ثقبا فى العلبة بواسطة الطرف المدبب لخطاف القارب ولكن الخطاف انزلق فى الوحل فيما بين القارب وضفة النهر ، بينما خرجت العلبة ـ دون أن تصاب بأى شىء ـ وكسرت قدح الشاى ·

وجن جنوننا من الغضب فذهب هاريس الى حقل

مجاور واحضر حجرا حادا وذهبت أنا الى القـــارب واحضرت مجدافا ٠ وامسك جورج بالعلبة ووضع هاريس الطرف الحاد من الحجر على قمة العلبة بينما رفعت أنا المجداف عاليا فى الهواء واستجمعت كل قوتى وهويت بالمجداف فوق العلبة ٠

كانت قبعة جورج المصنوعة من القش هى التى أنقذت حياته في ذلك اليوم ٠ انه يحتفظ بهذه القبعة حتى الآن - أو لنقل ماتبقى منها ـ وفى أمسيات الشـــتاء وحول نيران المدفأة يريها لأصدقائه ويحكي لهم القصة مع بعض اللمسات الخيالية الجديدة فى كل مرة ٠

بعد هذا وبينما عاد هاريس بجرح عميق فى اللحم ، أخذت انا العلبة واخذت أطرقها بالمجداف حتى نالنى التعب والاحباط ، ثم انضم الى هاريس وطرقناها حتى صارت مسطحة ثم طرقناها حتى صارت مربعة،وطرقناها حتى اكسبناها كل شكل ممكن ٠ لكننا لم نســـــتطع ان نفتح ولو ثقبا واحدا فيها ٠ ثم أخذها جورج وصار يطرقها حتى اكتسبت شكلا غريبا ومخيفا مما جعــــل

جورج يلقى بالمجداف بعيدا ·· وبعد هذا جلسنا حولها ـ نحن الثلاثة ـ نحدق فيها !

كان هناك تجويف كبير عند قمة العلبة اتخذ شكل ابتسامة ساخرة ·· وقد آثارت هذه الابتسامة غضبنا أكثر من أى وقت مضى · فامسك بها هاريس وألقى بها كل قوته بعيدا الى منتصف مجرى النهر وبينما كانت تغوص فى الماء كنا نحن نصب عليها لعناتنا ·· ثـــم عدنا الى القارب واخذنا نجدف بلا توقف حتى بلغنا بلدة ميدنهيد ، ·· اى رأس العذراء ··

جاوزنا (ميدنهيد) ، ثم سرنا ببطء أكثر خلال المناظر الخلابة التى صـــادفتنا فى منطقة ميدنهيد · وما أن تناولنا الشاى حتى أحسسنا بريح قوية تدفعنا للأمام وكان هذا مفاجئا لنا ، فعادة ماتكون الريـــاح معاكسة لك أينما توجهت على صفحة النهر · انها تبدأ ضدك عندما تبدأ أنت التجديف فى الصباح وتظل تفكر فى رحلة العودة وكيف ستكون سهلة وأنت تفرد شراعك ليستقبل الريح ·· ولكن وبعد نهاية اليوم تتغير الرياح



محاولة فتح العلبة الصفيح !

فيصير ضدك ايضا فى رحلة العودة ويـكون عليك ان تجدف بقوة ضد الريح وضد التيار معا ٠

ولكن فى هذا المساء بالتحديد ، يبدو أنه حدث خطأ ما فاستدارت الرياح تدفعنا من الخلف بدلامن ان تواجهنا ففردنا شراع قاربنا فامتلأ بالهواء واندفع القارب على صفحة الماء ٠

وكنت أقوم بتوجيه الدفة ٠٠٠

ليس هناك اجمل من أن تقلع بشراع تملأه الريح ٠ ان اجنحتها المندفعة ستبدو كانها تحملك معها ٠ حتى تصبح جـــزءا من الطبيعة ٠ بينما يغنى الهواء لك والأرض تبدو بعيدة وصغيرة والسحب القريبة من راسك تبدو كأنها اخوة وأنت تفتح ذراعيك لتحتويها ٠

كنا وحدنا على صفحة النهر فيما عدا ـ وعلى مسافة بعيدة ـ قارب صيد بدا لنا فى الأفق وهو يقف وحيدا وسط المجرى المائى وعليه ثلاثة صيادين ٠٠ وابحرنا بسرعة ونعومة مجاوزين الضفاف ذات الأشجار وقـد خيم علينا الصمت ٠

وكنت أقوم بتوجيه الدفة ..

وعندما اقتربنا من الصيادين الثلاثة تبين لنا أنهم كبار فى السن وعليهم وقار وهدوء . وكانوا يجلسون فى قاربهم ينظرون الى شباكهم بانتباه . كانت الشمس الغاربة الحمراء تلقى بأضواء سحرية على الماء ، وتلمس نيرانها أطراف الأشجار العالية ، وتصبغ السحب بلون ذهبى مجيد .. كانت لحظة من لحظات الجمال العميق فى الكون . وكنا كفرسان الحكايات القديمة نبحر عبر بحيرة غامضة فى مملكة الغروب المجهولة .. !

اننا لم نذهب فى الحقيقة الى مملكة الغروب ولكننا كنا نسير فى خط مستقيم فى اتجاه الصيادين الثلاثة ولم ندرك ماذا حدث فى البداية لأن الشراع أغلق المشهد . ولكننا ومن صرخات الغضب التى حملها الهواء الينا أدركنا أننا صرنا بالقرب من كائنات بشرية وأنهم ربما شعروا بالضجر والضيق بسببنا .

أنزل هاريس الشراع ورأينا ماحدث . فقد ارتطمنا

بالرجال الثلاثة وألقينا بهم فى قاع القارب ·· وكانوا الآن يحاولون الخلاص بأقدامهم وهم يزيحون السمك عن أجسامهم وأثناء هذا كان يصبون علينا لعناتهم وسبابهم ·

فقال لهم هاريس انه كان يجب عليهم أن يكونوا شاكرين لنا لاضافة شيء من الاثارة لعملهم ·· ثم انه ـ أى هاريس ـ قد أصابه الحزن من جراء رؤيته لرجال فى مثل سنهم ووقارهم يخرجون عن وقارهم بهذه الطريقة · ولكن كلامه هذا لم يخفف من أثر فعلتنا ··

قال جورج انه سيتولى الدفة بعد هذا · وأضاف أن عقلا كعقلى لايصلح لتولى توجيه القارب ·· وانه يجب أن أترك انسانا أكثر طبيعية وواقعية يتولى أمر القارب قبل أن نغرق جميعا · ثم أخذ الدفة وقادنا الى مدينة (مارلو) وهناك تركنا القارب ونزلنا الى البر لنقضى ليلتنا فى فندق صغير ··

الفصل الحادى عشر

مونتمورينسى ..

تعتبر مدينة « مارلو » من أكثر المراكـــز النهرية التى عرفتها بهاء . فهى مدينة أعمال تعج بالحياة وهى وان لم تكن مدينة بديعة ـ اجمالا ـ الا أن بها العديد من الأماكن التى تتميز بطابعها القديم . كما أنها محاطة بالحقول الجميلة والمروج الخضراء الفسيحة ، حيث يمكنك التريض على قدميك بعد ابحار طويل بالقارب . هذا بالاضافة الى أن النهر ذاته رائع الجمال فى تلك البقعة ..

ويمكننا أن نرى ـ الى أعلى قليلا فى النهر ـ آثـــار

دير « ميدينهام » ، وهو البيت الدينى للاخوة البندكتيون ابان القرن الثالث عشر · والاخوة البندكتيون هم رهبان كانوا يلبسون الثياب الخشنة ولا يقـربون اللحـــم أو السمك أو البيض فى طعامهم ، وينامون على القش · وكانوا يقومون للصلاة فى منتصف الليل وفوق كل هذا كانوا يصومون عن الكلام فتجدهم يحيون فى ســكون كسكون الموت ·

استيقظنا مبكرين ـ صباح الاثنين فى « مارلو » ـ وتوجهنا للحمام قبل الافطار · وفى طريق عودتنا اقترف مونتمورينسى فعلا غاية فى الحماقة · ان الموضوع الوحيد الذى أختلف فيه مع مونتمورينسى هو القطط ، فأنا أحب القطط بينما لا يحبها مونتمورينسى ·

وعندما أقابل قطة فى الشارع أداعبها بلطف وأنحنى عليها وأمسح بحنو على رأسها ، فترفع القطة ذيلها فى الهواء وتقوس ظهرها وتظل تدلك جسمها فى سروالى بحب ووداعة · أما مونتمورينسى فانه ان صادف قطة فحتما سيعرف الشارع كله بأمر هذا اللقاء ، فالضوضاء الناتجة عنه قد تصم الآذان ·

اننى بالطبع لا ألوم كلبى على هذا ، لأننى أعتقد أن كراهيته للقطط هى أمر غريزى فيه • فالكلاب التى من نفس فصيلة مونتمورينسى تولد وبها من الشراسة أربعة أضعاف مافى أية فصيلة أخرى من الكلاب •• ويستلزم الأمر مجهودا وصبرا من رجل عطوف حتى يتم ترويضها ويحسن من طباعها •

اننى أذكر يوما كنت أقف فيه فى مدخل أحد متاجر لندن الكبيرة ومن حولى كانت تقف مجموعة كبيرة من الكلاب تنتظر أصحابها الذين كانوا يتسوقون داخل المتجر • أنواع كثيرة من الكلاب فقد كان هناك كلبان من كلاب المراعى ، وكلب من فصيلة « البولدوج » وأخر من فصلية « سان برنار » وبعض الكلاب من نوع « النيوفوندلاند » وكلبا صيد من فصيلة « اليوركشير » وبودل فرنسى وبعض الحيوانات الصغيرة التى فى حجم الفأر •

كانوا جميعا يجلسون فى صمت ووداعة يخيم عليهم سلام مهيب • وبعد فترة أتت سيدة شابة وجميلة تمسك

فى يدها بمقود كلب لطيف المظهر من فصيلة « فوكس » ـ وهى نفس فصيلة مونتمورينسى ـ وتركته عند الباب مقيدا بين البولدوج والبودل الفرنسى · جلس الكلب « الفوكس » ونظر الى جيرانه ثم رفع بصره الى أعلى وبدا من تعبيرات وجهه أنه كان يفكر فى أمه ثم فتح فمه على اتساعه وكأنه يتثائب ثم دار ببصره مرة أخرى فى الكلاب التى كانت تجلس حوله فى صمت وجلال ·

نظر عن يمينه الى البولدوج الذى كان نائما يحلم ، ونظر عن يساره الى الدودل الفرنسى الذى كان يقف فى غرور وخيلاء ·· ثم وبدون سابق انذار وبلا أى سبب عض البودل الفرنسى فى قدمه الأمامية اليمنى فانطلقت فى الفضاء صيحة ألم عظيمة ·

سر « الفوكس » بما فعل فقرر أن يستمر وقفز فوق لبودل وهاجم كلب المراعى الذى كان نائما فصحا · وفى الحال بدأت معركة حامية الوطيس مع « البودل » ! بينما عاد « الفوكس » الى مكانه وامسك البولدوج من اذنه محاولا أن يرمى به بعيدا · مما جعل البولدوج يهاجم كل من استطاع أن يصل اليه بما فى ذلك حارس

البوابة وترك « للفوكس » الفرصة ليستمتع بمعركة أخرى بينه وبين « اليوركشير » ٠

وهكذا أخذت كل الكلاب التى فى المكان تتقاتل وكان حياتها معلقة على نتيجة هذه المعركة ٠ كانت الكلاب الكبيرة تتصارع مع بعضها البعض بينما تتعارك الكلاب الصغيرة فيما بينها ، ومن وقت لآخر تعض الكلاب الكبيرة فى أرجلها ٠٠ !

وصار مدخل المتجر ساحة معركة وامتلأ بعاصفة من الضوضاء وتجمع الناس يتزاحمون ليعرفوا من الذى قتل ٠ وجاء رجال معهم أعمدة وأطواق وحاولوا أن يفصلوا مابين الكلاب ثم حضر رجال الشرطة ٠

وفى وسط كل هذا جاءت السيدة الشابة الجميلة والتقطت كلبها الجميل ! ـ الذى كان قد عض الكلب اليوركشير عضة مريرة ـ بينما ارتسمت على وجهه امارات البراءة فقبلته وسألته برقة ان كان قد تعرض للاصابة من أحد تلك الكلاب الشرسة ، فرد عليها بعينيه البريئتى النظرات وكأنه يقول :

ـ أوه ، انني سعيد أنك أتيت لتحمليني بعيدا عن هذا المشهد الفظيع ٠

هذه هي طبائع الكلب « الفوكس » ٠٠ لهذا فانا لا ألوم « مونتمورينسي » لكونه حادا مع القطط ٠ الا أنه هو نفسه تمنى لو انه لم يكن كذلك في هذا الصباح ٠

فبينما كنا عائدين من الحمـــام وفي منتصـف الطريق على الشارع الرئيسي ، انبعثت امامنا فجـأة قطة خرجت لتوها من احد المنازل وبدأت تجري مسرعة عبر الشارع ، فأطلق مونتمورينسي صيحة فرح عظيمة ٠٠ صيحة كصيحة جندي عديم الرحمة رأى نصـــره بعينيه واخذ يطارد أعداءه المنسحبين ٠٠

كان عدوه هذه المرة قطة كبيرة سوداء لم أر اكبر ولا أقبح منها منظرا من قبل ٠ كانت قد فقدت ذيلها واحدى اذنيها وجزءا كبيرا من انفها ٠ كانت حيوانا طويلا مخيفا كله عضلات ، وكانت تبدو وديعة هادئـة البـال ٠

اندفع مونتمورينسي خلف القطة المسكينه بسـرعة

عشرين ميلا فى الساعة · لكن القطة لم تسرع بالفرار بل لم يبد عليها أنها قد فهمت أن حياتها فى خطر فظلت تسير بهدوء حتى أصبح الكلب القاتل على بعد خطوة واحدة منها فاستدارت وجلست فى منتصـف الطريـق ونظرت الى مورنتمورينسى بتحد **وكأنها تقول له :**

ـ نعم ، هل تريدنى ؟

ولم تكن الشجاعة تنقص مونتمورينسى على الاطلاق ولكن لابد أن شيئا ما فى نظرات تلك القطة جمد الدماء فى شرايين الكلب الشجاع · فتوقف فجأة ونظر بامعان فى وجه القطة ·· لم يكن ثمة كلام **ولكن الحديث الذى يتخيله المرء أنه دار بينهما كان كما يلى :**

القطة : هل يمكننى تقديم أى شىء لأجلك ؟

مونتمورينسى : لا ·· لا شكرا !

القطة : لاتخش الكلام ان كنت حقا تريد شيئا ··

مونتمورينسى (وهو يتقهقر) : أوه ، كلا ·· على الاطلاق · لاداعى لأن تقلقى نفسك لأجلى · اخشـــى

أنى ·· أنى قد ارتكبت خطأ ما فقد ظننتك شخصا آخر أعرفه · أعتذر لمضايقتك وشكرا ·

القطة : لاداعي للشكر ، ولكن هل انت متأكد من انك لاتريد منى أى شىء الآن ؟

مونتموريتسي (وهو لايزال يتقهقر) : لا ·· لاشىء شكرا ·· لاشىء على الاطلاق ! انك كريمة حقا أسعدت صباحا ·

القطة : أسعدت صباحا ·· !

وعاد الكلب وقد وضع ذيله بين فخذيه واتخذ لـه مكانا مهملا بيننا · وحتى هذه اللحظة لو أنك نطقت أمامه بلفظ قطة ، فانه سيرتعد وينظر اليك باستعطاف يرجوك ألا تفعل !!

بعد الافطار ذهبنا نتسوق ونشترى ما يكفينا لثلاثة أيام · وقـال جـورج أننا يجب أن نشـترى بعض الخضراوات الطازجة حيث أنه من الضار بصحتنا أن يخلو طعامنا منها لفترة طويلة · وقال أن طهيها سهل

وأنه سيتولى هذا الأمر .. فاشترينا عشرة أرطال من البطاطس وكمية كبيرة من الفاصوليا وبعض البصل وبعض شرائح اللحم وبعض الفاكهة بالاضافة الى قطع الدجاج الروستو . وفي جولتنا بالمدينة اشترينا بعض الفاكهة والكعك والخبز والمربى والزبد والبيض وأشياء أخرى .

كانت جولتنا في مدينة « مارلو » ناجحة تماما . فعند كل متجر كنا نقف أمامه ونصر على أن نشترى منه بعض الأشياء . وكنا ننتظر حتى يحزم لنا البائع حقيبة الأشياء ثم نأخذ صبى المتجر معنا ليحملها لنا ، وقد ذهبنا لعدة متاجر واتبعنا هذا النظام عند كل متجر . فكانت النتيجة هى أنه بانتهائنا من الشراء كان عندنا مجموعة رائعة من صبيان المتاجر يحملون سلال المشتروات ويسيرون خلفنا . وهكذا لابد أن مسيرتنا من وسط المدينة الى ضفة النهر كانت أكبر مظاهرة شهدتها مدينة « مارلو » منذ وقت طويل .

وكان ترتيب المسير فى المظاهرة كالتالى :

مونتمورينسى يحمل فى فمه قطعة من عصا ..

كلبان قبيحا المنظر من أصدقاء مونتمورينسى ..

جورج حاملا المعاطف والأغطية وفى فمه غليونه الصغير ..

هاريس يحاول الا يتعثر وهو يحمل حقيبة جلدية تكاد تتفجر مما بها فى يد ، وفى يده الأخرى يحمل زجاجة عصير برتقال ..

ثم صبى البقال وصبى الخباز يحملان السلال ..

ثم صبى من الفندق يحمل سلة ..

ثم كلب طويل الشعر من كلاب الطريق ..

ثم رجل عجوز يحمل حقيبة وبجواره صديق حميم له يضع يديه فى جيوبه بينما يضع فى فمه غليونا قصيرا منحنيا ..

خلفه يسير صبى الفكهانى يحمل سلة الفاكهة .

ثم .. أنا أحمل ثلاث قبعات وزوجا من الأحذية ذات الرقبة ..

ثم ستة أطفال صغار وأربعة كلاب ضالة ..

وعندما وصلنا الى مرسى القوارب قال لنا حارس المرسى :

ـ دعنى أساعدك ياسيدى أين سفينتكم أو يختكم هنا .. ؟ !

وعندما أخبرناه أن مالنا فى المرسى انما هو قارب صغير بمجدافين وشراع صغير بدت على الرجل أمارات الذهول .

واجهتنا فى هذا اليوم بعض المتاعب مع القوارب البخارية التى كانت تملأ صفحة النهر رائحة غادية فى أعداد كبيرة فاليوم هو اليوم السابق على أسبوع سباق « هنلى » للقوارب البخارية .

بعض هذه « القوارب البخارية » كان يسير منفردا وبعضها الآخر يصحبه يخت للمبيت . اننى أكره القوارب البخارية واظن أن كل من يستعمل القوارب ذات المجداقين يكرهها مثلى . فهى تصدر ضوضاء

كريهة تثير كل نوازع الشر فى نفسى درجة اننى اتمنى لو قدر لنا العودة الى ذلك الزمان الذى كان يمكننا فيه أن نقول رأينا بصراحة مطلقة فى وجـــه الآخـــرين باستعمال البلطة والسهم والقوس ٠

- اننى على ثقة تامة أن صوت نفيرها المزعج المستبد يأمرك بالابتعاد وافساح النهر لها وحدها يعتبر فى حد ذاته عذرا وجيها لك لو أنك أتهمت بجريمة قتل أحـد أصحابها أمام محكمة تشكل من رجال النهر ٠

وحدث أن تركناهم يصفرون لنا من خلفنا دون أن نفسح لهم الطريق أو نسمح لهم بالمرور ٠ وأظن أنـه بامكانى القول ان قاربنا الصغير قد ســبب ارباكـا وتعطيلا لتلك القوارب البخارية أكثر من أى شىء على صفحة النهر ٠

فما أن يظهر أحد القوارب البخارية متجها ناحيتنا حتى يصيح أحدنا لرؤيته للعدو قادما ٠ وبسرعة يتخذ كل منا مكانه ، فامسك أنا بالدفة ويجلس هاريس وجورج بجوارى وقد أعطينا ظهورنا للقارب البخارى ونتـرك قاربنا ينساب بهدوء فوق صفحة النهر ٠

وعندما يقترب منا القـــارب البخارى يأخـــذ فى اصدار نفيره المزعج يحذرنا ، ولكننا نظل ننساب على صفحة الماء بهدوء ، وبعد مائة ياردة أخذ يصفر ثانية وهذه المرة فى غضب شديد ، ومال ركابه على جوانبه وأخذوا يصيحون وينادون علينا وأبدا لم نكن ننصت و نسمع لهم • فقد كان هاريس يحكى لنا احدى قصص أمه ، وتشد القصـــة كل انتباهنا أنا وجورج وينملكنا الحرص على ألا تفوتنا منها كلمة واحدة •

ثم يطلق القارب البخـــارى نفيره الأخير البائس والذى يكاد يفجر آلته ، ويستدير بعنف ليتفادانا فينحرف ويكاد يقفز على ضفة النهر فيندفع كل من على سطحه الى مقدمته وهم يصرخون ويصـــيحون والناس على ضفة النهر يأخذون فى الصراخ وينادون علينا ، حتى القوارب المارة تشترك فى هذا الصياح حتى يتحول النهر كله ولعدة أميال الى مظاهرة رهيبه •

ولهذا اضطر هاريس الى قطع استرساله فى القص عند أكثر المواقف تشويقا فى حكايته ناظرا الينا دهشة قائلا لجورج فى فزع :

ـ ياالهى ، انظر ياجورج ·· قارب بخارى !

فيرد جورج بهدوء :

ـ حسن ، لقد تصورت أنى سمعت شيئا بالفعل ·

وانتابتنا حالة من الذعر والارتباك ، ولا نتمكن من اخراج قاربنا عن الطريق فيتزاحم ركاب القارب البخارى ويصيحون علينا يوجهوننا فنسمع من يقول :

ـ اجذب مجدافك الأيمن ·· أنت ·· أنت أيها الغبى ، الى الخلف مجدافك الأيسر ، لا ·· لست أنت الآخر ، دع الدفة كما هى الا تفهم ·· الآن كلكم معا · لا ليس بهذه الطريقة اوه انك ··· !

ثم ينزلون قاربا صغيرا من ركبهم ويسرعون لانقاذنا ، وبعد ربع ساعة من الجهد الشاق يتمكنون من اخراجنا الى جانب الطريق ويواصلون بعد هذا سيرهم فنشكرهم شكرا جزيلا ونرجوهم أن يجرونا معهم ولكنهم كانوا يرفضون ذلك بعنف ··

الفصل الثاني عشر

سر اختفاء هاريس والبخنى الأيرلنـــدى

تناولنا غداءنا فى هذا اليوم على ضفاف النهر فى بلدة « وارجريف » .. وخلال هذا الغداء أصـــبت أنا وجورج بصدمة عنيفة .. فى الواقع أن هـــاريس قد تلقى صدمة شديدة هو الآخر ولكنها لم تكن فى عنف الصدمة التى تلقيناها نحن ..

كنا نجلس فى حقل على مسافة حوالى عشـــر خطوات من حافة النهر . وكنا قد جلسنا لتونا ، وكان هاريس يضع بين ركبتيه فطيرة شرائح اللحم ليقطعها ،

بينما كنا ننتظره أنا وجورج حاملين أطباقنا المتلهفة لتقطيع الفطيرة ·

وقال هاريس :

ـ أليست معكم شوكة هنا ؟ اننى احتاج لشوكة لتقطيع الفطيرة ·

وكانت سلة الطعـام خلفنا مباشـــرة فالتفتنا أنا وجورج للخلف فى وقت واحد كى نخرج الشوكة منها · ولم يستغرق هذا أكثر من خمس ثوان ، ولكننا عندما استدرنا كان هاريس ومعه فطيرة اللحم قد اختفيا ·

كان الحقل الذى نجلس فيه مفتوحا وواسعا ولاتوجد اية أشجار عالية أو حواجز ـ لمسافة ـ مئات الأمتار ـ ولايمكن أن يكون قد سقط فى النهر لأننا كنا نجلس ناحية النهر ولكى يسقط فيه هاريس عليه أن يطير من فوقنا أولا ··

درنا ببصرنا فى كل مكان حولنا ·· ثم حملق كل منا فى وجه الآخر · وقلت لجورج متعجبا :

ـ أتكون الملائكة قد حملته للسماء ٠ ؟!

فقال جورج :

ـ ان كانوا قد فعلوا فمن غير المعقول ان يأخذوا منهم الفطيرة ايضا ٠

بدا هذا القول معقولا ، وكان علينا أن نبحث عن تفسير آخر فقال جورج :

ـ اننى أعتقد أن الأرض قد ابتلعته

ثم اضاف بنبرة حزينة :

ـ ليتنا ماتركناه يقسم فطيرة اللحم ٠٠

وبلهفة شديدة أدرنا بصرنا وتوجهنا به الى البقعة التى كان يجلس عليها هاريس ٠٠ آه أخيرا ظهـــرت الفطيرة ، هنا تجمد الدم فى عروقنا وانتصب شـــعر رأسينا ، فقد رأينا رأس هاريس ٠٠ لاشىء منه سوى رأسه وقد وقفت بين الحشائش الطويلة بوجه أحمر يتميز غيظا ٠

افاق جورج من الصدمة قبلى فصاح :

ـ تكلم ! قل لنا هل أنت حـــى أم ميت ·· أين بقيتك ؟

فرد عليه راس هاريس :

ـ أوه ، لاتكن سخيفا ! اننى أعرف أنكما قــد فعلتما هذا عن عمد ·

فاندهشنا انا وجورج وصحنا فى صوت واحد :

ـ فعلنا ماذا ؟ !

ورد علينا الرأس فى ضيق :

ـ لماذا جعلتمانى أجلس فى هذه البقعة بالـذات ؟ انها خدعة سخيفة · هيا امسكا الفطيرة !

كان هاريس قد جلس دون أن يعرف على حافــة ترعة صغيرة تخفيها الأعشاب والحشائش وبينما هو ينحنى للخلف وقع فى الترعة آخذا معه الفطيرة ·

وقد علق هاريس على ماحدث قائلا انه لم يفاجأ

فى حياته مثل تلك المفاجأة فقد أحس انه يهوى تحـت الأرض دون أن يعرف السبب وكـــان أول ماطرأ على ذهنه هو ان هذا هو يوم القيامة ٠

منحتنا الطبيعة رياحـــا لطيفة حملتنا بعيدا عن « وارجريف » و « شيبلاك » ٠ وعلى ذكر «وارجريف » فان هذه المدينة الصغيرة التى تقع عند منعطف النهر تظهر لعينيك كلوحة جميلة قديمة ، خاصة اذا كستها اشعة الشمس الناعسة ثوبا أحمر مذهبا ٠٠ صـورة رائعة لاتنسى !

ومن «شيبلاك» الى «سوننج» كان النهر يحملنا خلال عدة جزر صغيرة ٠ وكم كان هادئا وناعما ووحيدا ٠ ان هذا الجزء من النهر ترتع فيه احلام الأيام الخوالى وترى فيه اشكالا ووجوهـــا مضت لحالهـــا منذ زمن واشياء كان يجب أن تكون ولكنها لم تكن !

تركنا القارب عند المرسى فى « سوننج » ونزلنـــا نتمشى فى جولة بالقرية ٠ انها من اكثر البقاع سحرا على طول ضفاف النهر ٠٠ انها اشبه بقرية خياليـــة

بنيت كديكور على خشبة مسرح · فكل البيوت تغطيها الورود التى كانت فى هذا الوقت ـ فى بدايات شـــهر يوليو ـ متفتحة تسبح وســـط سحب من الاشـــراق والبهاء ·

تجولنا فى سونينج لمدة ساعة ·· ونظرا لأن الوقت قد تأخر وأصبح لايكفى للذهاب الى ريدينج فقد قررنا ان نعود الى جزيرة « شيبلاك » لنمضى الليلة بها ··

وعندما استقر بنا المقام وجدنا أن الوقت لايزال مبكرا على النوم · فقال جورج انه مادام لدينا وقت متوفر فانها ستكون فرصة رائعة لكى نصنع لأنفســـنا عشاء طيبا حقا · وقال انه سيرينا ماذا يمكن ان يقدم من طرق الطهى فى رحلـــة على النهر · واقتـــرح ان يســـتخدم الخضراوات وبقايا اللحم البارد وفضلات الطعام الأخرى لنصنع منها طبخة تسمى « اليخنـــى الايرلندى » ·

بدا هذا الاقتراح فكرةطيبة · وعلى الفور بدأنا الاعداد · فجمع جورج الحطب واشعل النار · وتوليت

أنا وهاريس كحت قشر البطاطس · فى الحقيقة انــه لم يخطر ببالى مطلقا ان عملية كحت وتقشير البطاطس ستكون بهذه الصعوبة . فقد بدأنا العمل بحيوية تلاشت بعد الانتهاء من أول حبة بطاطس · فكلما كنا نكحت كانت القشرة تزداد حتى لايتبقى من حبة البطاطس سوى قطعة صــغيرة ·· وبرغم أننا لــم نتوقف عن العمل المتواصل لمدة خمس وعشرين دقيقة ، فاننا لم ننته الا من تقشير أربع حبات فقط ·· ثم رفضنا الاستمرار وقلنا سنستهلك بقية الليل فى ازاحة قشر البطاطس من فوق ملابسنا ومن على أجسامنا ··

ولكن جورج قال أنه من السخافة أن نصنع اليخنى الأيرلندى بأربع حبات بطاطس فقط ، ولهذا فقد غسلنا نصف دستة أخرى وقطعناها ووضعناها فى اناء الطبخ دون أن نزيل قشرها · ثــم وضعنا بصـــلة وبعض الفاصوليا وخلطهم جورج معا · ثم قال ان الاناء لايزال فارغا ، فبحثنا فى سلتى الطعام وأخرجنا كل البقايا والفضلات التى وجدناها وأضفناها الى اليخنى ·· ووجد جورج نصف علبة سمك فأفرغها فى الانــاء أيضا ·· !

وعقب جورج على هذا بقوله أنه من مزايا اليخني الايرلندى انه يمكنك من التخلص من فضلات كثيرة · ثم أخرجت أنا بعض البيض المكسور وأضفته الى الاناء·

للحق أنا لا أذكر الآن ماذا وضعنا أيضا فى اناء الطبخ ولكننا على أية حال لم نترك أى شىء يضيع سدى ، حتى مونتمورينسى الذى كان يتبعنا باهتمام اختفى قرب انتهاء الطبخ،وعاد يحمل فى فمه جرذين من جرذان الماء وكأنه يقدمهما لنا كمشاركة منه فى صنع اليخنى الايرلندى ·

وجرت بيننا مناقشة حادة حول ما اذا كان من الممكن اضافة الجرذان الى اليخنى أم لا ·· قال هاريس أنه يرى اضافتها ، وأن أى شىء سيخلط مع اليخنى حتما سيضيف اليها مذاقا جديدا ، ولكن جورج رفض باصرار فهو لم يسمع قط عن يخنى ايرلندى صنع بجرذان الماء ··

فقال له هاريس :

ـ انك ان لم تجرب أبدا الأشياء الجديدة فكيف

يمكنك الحكم عليها ؟ ان اناسا مثلك هم من يقفون فى وجه تقدم البشرية ٠

ومع ذلك فقد كان اليخنى الايرلندى طبخة ناجحة تماما ٠ فلم أذق فى حياتى طعاما أشهى منه ٠ كان به شيء ذو نكهة خاصة طازجة ٠ كما اننا قد مللنا الأطباق المعتادة ، وها هو ذا طبق ذو طعم لا مثيل على وجه الأرض !

اتممنا عشاءنا بالشاى وفطيرة الفواكه ٠٠ وبينما كنا نصنع الشاى ، قامت معركة بين مونتمورينسى وغلاية الشاى انتهت باصابات بالنسبة لمونتمورينسى ٠

طوال الرحلة ومونتمورينسى ينظر بفضول الى غلاية الشاى وقد اعتاد أن يجلس ويرقبها وهى تغلى بحيرة وارتباك ٠ ثم حاول أن يخيفها بأن أخذ ينبح عليها ٠٠ وعندما كان البخار يتصاعد منها كان يحاول أن يهاجمها ٠ ولكن دائما كان هناك من يتدخل فى اللحظة الأخيرة ويحمله بعيدا عن العدو ، قبل أن يهاجمه ٠

واليوم صمم مونتمورينسى على ان يقوم بالهجوم

فى الوقت المناسب وعند أول صوت صدر من الغلاية ، نهض مزمجرا وتقدم فى اتجاهها بطريقـــة عدوانية . وبالرغم من كونها غلاية صغيرة .. الا انها كانت تمتلىء شجاعة ، فبصقت فى وجه الكلب فزاد هياجه ونبـــح نباحا شديدا وكأنه يقول لها :

ـ آه ، أتبصقين فى وجهى .. سوف أعلمـك أن تكونى مهذبة مع كلب صعب المراس مثلى .. ومحترم مثلى .. تعالى أيتها الشيطانة البائســـة ذات الأنف الطويل !!

ومع هذه الكلمات اندفـع نحو الغلاية الصـــغيرة المسكينة ودفعها بأنفه . ولم يكد يفعل هذا حتى أطلق صرخة شقت صمت الليل..صرخة ألم ورعب.ثم اندفع هاربا لا يلوى على شىء وأخذ يدور حـــول الجزيرة ثلاث مرات . وفى كل مرة كان يقف فى محطات ليضع أنفه فى الطمى الرطب .

ومنذ هذا اليوم ومونتمورينســـــى يرمق الغلاية الصغيرة بنظرة هى مزيج من الخوف والريبة والكراهية

.. وما أن يراها حتى ينبح ويهرول هاربا واضعا ذيله بين رجليه . وفى اللحظة التى توضع فيها على الموقد يترك القارب كله ويجلس على الشاطىء حتى يتم اعداد الشاى .

بعد العشاء ، أخرج « جورج » آلة البانجو يريد أن يعزف عليها ولكن هاريس منعه وقال أنه يعانى من صداع ويشعر أنه لا يقوى على تحمل الضوضاء . بينما قال جورج أنه يعتقد أن الموسيقى ربما تخفف عنه الألم ، فالموسيقى تريح الأعصاب وتذهب بالصداع . وعزف ثلاث مقطوعات صغيرة ليثبت كلامه لهاريس .

ولكن هاريس قال أنه يفضل الصداع .. ولم يستطع جورج أن يتعلم العزف على البانجو الى الآن ، فقد قابل الكثير من التثبيط لهمته فى هذا المجال .. فقد حاول على مدى ليلتين أو ثلاث أن يمارس العزف ولو قليلا ، ولكن دون نجاح .. فقد كانت لهجة هاريس كافية لتحطيم طموح أى انسان ، كما أن مونتموريسنى كان لايفتأ ينبح عند أية محاولة من جورج للعزف على

البانجو . وكان جورج يقذفه بفردة الحذاء وهو يتساءل في غضب :

ـ ماذا يقصد هذا الكلب بنباحه هكذا أثناء عزفي ؟

فيرد عليه هاريس وهو يدفع الحذاء بعيدا عن الكلب بقوله :

ـ بل ماذا تقصد أنت من عزفك هذا أثناء نباحه ؟

. دعه وشأنه .. ان أذنه موسيقية وعزفك يؤذيها !

لهذا قرر جورج التوقف عن تمارين البانجو حتى يعود الى البيت .. لكنه لم يصادف حظا أسعد بعد عودته للبيت ، فقد اعتادت السيدة « بوبيت » مديرة المنزل أن تصعد الى حجرته لتقول له أنها فى غاية الأسف فهى نفسها تود لو تسمعه ، ولكن السيدة التى تسكن فوقنا سيدة مسكينة تعاني من سوء حالتها الصحية ويخشى طبيبها أن يؤذيها عزف السيد جورج !

وحاول جورج أن يأخذ آلة البانجو معه فى أوقات متأخرة من الليل ليعزف عليها فى الميدان . ولكن الجيران اشتكوا للبوليس الذى كمن له ذات ليلة وألقى القبض

عليه ·· وكانت القضية المرفوعة ضـــده فى المحكمة واضحة تماما واضطر لتقديم تعهد بالحفاظ على الهدوء لمدة ستة أشهر والا تعرض لعقوبة السجن !

وقد سيطر عليه الحزن الشديد طوال هذه الشهور الستة وحاول أن يبذل بعض الجهود للعزف على آلـة البانجو مرة أو مرتين بعد انتهائها ، ولكنه كان دائما يقابل بنفس الفتور ونفس التجاهل من المحيطين به أخيرا استسلم وقرر أن يعرض آلة البانجو للبيع بسعر بخس ، وبدأ يتعلم لعب الورق بدلا من العزف ··

ان محاولة تعلم العزف على آلة موسيقية تعتبر فى وقتنا من الأعمال المحبطة ·· انكم قد تتصـــورون أن الناس ستساعد الهاوى ليتمكن من فنه · ولكـــن هذا لايحدث ··

اننى أعرف شابا حاول تعلم العزف على آلة موسيقى القرب · وسوف تندهشون اذا علمتم مدى المقاومة التى لاقاها فى سبيل ذلك · فهو حتى لم يتلق أدنى تشجيع من أفراد عائلته أنفسهم ، بل ان أباه كان يقف ضـــده

بقوة منذ اللحظة الأولى وكان يعلن رأيه فى كل وقت ٠

وكان صديقى معتادا أن يصحو مبكرا ليتمرن ، ولكنه أجبر على أن يقلع عن تلك العادة بعد أن نهرته أخته والتى كانت تعتبر من المتزمتات دينيا ٠ وقالت له انه لأمر فظيع أن يبدأ الانسان يومه بمثل هذا العمل ٠

وبدأ صديقى يتمرن على العزف فى وقت متأخر من الليل بعد أن يأوى كل أفراد العائلة الى مخادعهم ٠ ولكنه لم يستطع أن يواصل هذا أيضا ٠٠ فقد تسبب عزفه فى اكساب بيتهم سمعة سيئة ٠ فالمارة العائدون لمنازلهم فى أوقات متأخرة من الليل كانوا يتوقفون أمام البيت وينصتون ٠٠ وفى الصباح ينشرون أخبار قصة جريمة القتل التى وقعت فى منزل السيد جيفرسون ، وكيف أنهم استمعوا طوال الليل لصرخات القتيل وصياح القاتل وصرخات الاستغاثة من بقية سكان المنزل وفى النهاية كانوا يسمعون حشرجة أنفاس القتيل وهو يموت ٠

بعد هذا تركوه يتمرن فى المطبخ ، فى مؤخرة

البيت بينما تكون كل أبواب المنزل مغلقة بالمزاليج ، ولكن أصوات عزفه كانت تصل الى حجرة المعيشة وتسمع بوضوح ، وكانت تتسبب أحيانا فى بكاء أمه ·

اخيرا بنوا له مخبأ تحت الأرض فى الحديقة على بعد نصف ميل من المنزل وتركوه يأخذ آلته ويذهب الى هناك كلما أراد أن يتمرن على العزف ·· وكان يأتيهم زائــــر قد لايعلم بأمر هذا المخبأ ، وقد ينسون اخباره به ، فيخرج ليتجول حول المنزل ويفاجأ بصوت موسيقى القرب ينبعث من مكان مجهول ودون سابق انذار ·· فاذا كان رجلا قويا فانه قد يفيق من الصدمة بعد وقت قصير ، أما اذا كان انسانا عاديا فانـــه قد يصـــاب بالجنون !

الفصل الثالث عشر

هاريس وحيدا فى القارب

أحس هاريس ـ بعد عشاء هذه الليلــة ـ ببعض الضيق • وأعتقد أن اليخنى كان السبب •• ولهذا تركناه ـ أنا وجورج ـ فى القارب واتفقنا على أن نتجول قليلا فى (هنلى) •• بينما يبقى هاريس فى انتظارنا • وقد قرر هاريس أن يجلس ليتناول كأسا من الوسيكى ، ثم يصلح بعض الأشياء خلال الأمسية •

وقد اتفقنا معه على أن ننادى عليه عند عودتنا ليجدف بالقارب الى ناحيتناويلتقطنا •• وأكدنا عليــه الا ينام فوعدنا بألا يفعل •

كانت مدينة « هنلى » تستعد لسباق القوارب وكانت مزدحمة بالبشر · وقد قابلنا عددا كبيرا من معارفنا فى المدينة ، قضينا معهم بعض الوقت ·· وقد مر الزمن فى صحبتهم ممتعا وسريعا حتى أن الساعة كانت قد بلغت الحادية عشرة عندما بدأنا نشق طريق العودة الى بيتنا ، أقصد قاربنا الصغير الذى تعودنا أن نسميه بيتنا منذ بدأت هذه الرحلة · وكانت المسافة بيننا وبين بيتنا تبلغ نحو أربعة أميال طولا ··

كانت ليلة قارسة البرد موحشة ، تتقاطر فيها خيوط من المطر الخفيف · وكنا نسـير فى الحقول المظلمة الصامتة نتحدث بصوت خفيض ونتساءل ان كنا حقا نسير على الطريق الصحيح ·· كنا نحلم بالقارب المريح والضـوء اللامع المنبعث من خلال الشراع المشدود · وتدور فى رؤوسنا الأفكار عن هاريس ومونتموريسى والويسكى · وتمنينا لو اننا معهم جميعا الآن ·

تخيلنا أنفسنا فى القارب متعبين جائعين نجلس الى طعام العشاء ونأكل اللحم البارد ونتناول بعضا من

قطع الخبز ·· ونسمع بآذاننا صوت السكاكين والشوك المرح وهى تجرى على قطع اللحم تقطعها · وصوت ضحكاتنا يملأ المكان ويهتك ستر الليل ·· حلمنا بكل هذا فأسرعنا نغذ السير على الطريق ·

أخيرا اهتدينا الى الطريق الصحيح فاطمأن قلبانا واسترحنا من حيرتنا ، فلم نكن حتى هذه اللحظة ندرى أنسير فى اتجاه النهر أم نسير مبتعدين عنه ·· وكم تكون هذه الحيرة مؤلمة عندما يكون الانسان متعبا جائعا يتوق الى النوم ·· بعدنا الآن عن المدينة وقد بلغت الساعة الثانية عشرة الا الربع وهنا قال جورج بقلق :

ـ ألا تذكر اية جزيرة كانت ؟ هل تذكر ؟ !

فأجبته وقد بدأ القلق يساورنى بدورى :

ـ لا ·· لا أذكر ·· كم كان عدد هذه الجزر ؟ !

ـ أربع فقط · على اية حال سيكون كل شىء على مايرام ·· ان كان هاريس متيقظا ··

وما أن وصلنا الى الجزيرة الأولى ، حتى أخذنا ننادى بصوت عال . ولكن مامن مجيب .. فتوجهنا الى الجزيرة الثانية وفى مواجهتها كررنا المحاولة .. وحصلنا على نفس النتيجة .

ثم قال جورج فرحا :

ـ أوه ، لقد تذكرت .. لقد كانت الجزيرة الثالثة !

فعدونا والأمل يحدونا فى اتجاه الجزيرة الثالثة . ولكننا عندما وصلناها ونادينا على هاريس لم نسمع الا صوتينا .

كان الموقف قد صار خطيرا فقد جاوز الوقت منتصف الليل والفنادق فى كل من « شيبلاك » و« هنلى » ستكون ممتلئة ، ولايمكننا أن ندور على أصحاب الأكواخ وحراس المنازل نستجديهم حجرة نبيت فيها .

اقترح جورج أن نعود أدراجنا الى مدينة « هنلى » ونضرب شرطيا عساهم يحتجزوننا فى قسم الشرطة فنبيت ليلتنا فى دفء التخشيبة . ولكن ماذا لو أن

الشرطى رد علينا فضربنا كما ضربناه ولم يحبسنا بالقسم . كما اننا بالطبع لايمكننا ان نقضى الليل نتعارك مع رجال الشرطة . وقد يحدث مالا نريده فنضرب الشرطى أكثر من اللازم وننال حكما بالسجن ستة أشهر .

وفى يأس عاودنا المحاولة عند الجزيرة الرابعة . وكانت تبدو غارقة فى الظلام .. ولكننا لم نجن شيئا أفضل مما جنينا من قبل !

وبدأ المطر ينهمر بغزارة عاقدا عزمه ـ على مايبدو ـ على الاستمرار بهذه الصورة وغرقنا نحن فى الماء .. وفى حيرتنا .. ترى هل كان عدد الجزر أربعا فقط ؟ .. ترى هل اقتربنا حقا من الجزر أم ترانا مازلنا على بعد ميل منها ؟ .. ووصل بنا الأمر الى أن ظننا أننا على الجانب الآخر من النهر .. كان كل شىء حولنا غريبا وموحشا وغارقا فى الظلام !

وفى اللحظة التى فقدنا فيها كل أمل فى النجاة . التقطت عيناى شعاعا من ضوء شاحب يتراقص بين

الأشجار منبعثا من الضفة المقابلة · فى البداية ظننته من صنع الأشباح ، ولكنى فى اللحظة التالية اكتشفت أنه قاربنا ، فأطلقت صـــيحة جعلت الليل يهتـز فى فراشه !

وحبسنا أنفاسنا فى انتظار الرد ·· ثم وبعد دقيقة ·· أوه ·· ياالهى ، يالها من موسيقى تنبعث من طيات الظلام ! ·· هاهو صوت مونتمورينسى يرد على ندائنا ·· وصحنا ثانية بصوت كان كافيا لايقاظ الموتى تحت الثرى ، وبعد أن انتظرنا فترة أخرى خلناها ســاعة كاملة وهى لم تتعد فى الحقيقة خمس دقائق ، رأينا القارب المضىء يزحف ببطء فى الظلام وسمعنا صوت هاريس يسألنا ناعسا : « أين كنا ! » ·

كان هناك شىء ما غريب يبدو على هاريس ·· شىء أكثر من الارهاق · فبدلا من أن يجدف الى ناحيتنا أخذ القارب الى مكان يستحيل علينا أن نبلغه ثم راح فى النوم · واستدعى الأمر كما هائـــلا من الصـــراخ والصياح لايقاظه وبث بعض الاحساس فى عقلـــه · وأخيرا نجحنا وصرنا على ظهر القارب !



واخيرا عثرنا على الممر الصحيح !

عندما وصلنا القارب لاحظنا أن علامات الحــزن ترتسم على وحه هاريس • كان شكله يعطيك انطباعا لرجل واجه الكثير من المتاعب ، فسألناه ان كان قــد حدث له أى شيء أثناء غيابنا فأجاب بقوله :

ــ الأوز !!

هكذا قال « الأوز ! » فقد كان يبدو اننا رسـونا بالقارب عند عش للأوز البرى ، وكانت انثى الأوز قد عادت الى عشها ــ بعد مغادرتى أنا وجورج للقارب ــ وانتابها غضب شديد لرؤية قاربنا يرسو بالقرب من عشها • ويبدو أنها أظهرت هذا الغضب بطريقة ضايقت هاريس فطردها بعيدا • ولكنها عادت ثانية وقــد أحضرت ذكرها •• وقال هاريس أنه قد دخل معركة حقيقية مع هذين الطائرين •• وفى النهاية انتصرت الشجاعة والحنكة وانسحب الطائران منهزمين !

ولكنهما سرعان ماعادا ثانية وقد أصبح عددهم ثمانية عشر طائرا هذه المرة ، ولا بد أنها كانت معركة رهيبة ــ بصرف النظر عن أن احصاء هاريس لعــدد

الأوز لم يكن دقيقا بل كان مشوشا ـ فقد حاولت طيور الأوز أن تسحبه هو ومونتموريتسى خـارج القــارب لتغرقهما • ولكن هاريس دافع عن نفسه دفاع الأبطال على مدى أربع ساعات • واستطاع أن يهزمهم جميعا وراى فلولهم وهى تفر هاربة وجراحهـا تنزف حتى الموت •

سأل جورج هاريس قائلا :

ـ كم كان عدد الأوز فى تلك المعركة ؟

فأجابه هاريس وهو يغالب النعاس :

ـ كان عددها اثنتين وثلاثين أوزه ••

ـ ولكنك قلت لتوك أنهم كانوا ثمانى عشـرة أوزه فقط •

ـ لا •• أنا لم أقل هذا ، بل قلت اثنى عشر طائرا هل تعتقد أنى لا أحسن العد •

وهكذا لم يقدر لنا أن نعرف أبدا حقيقة عدد الأوز

البرى فى تلك المعركة التاريخية · فعندما أصبح الصباح وسألنا هاريس ثانية عن عدد الأوز ، أجاب بدهشة قائلا :

ـ أى أوز ؟!

وبدا عليه أنه اعتقد أننى وجورج كنا نحلم أو نهذى!

كم كان جميلا أن نعود الى بيتنا ـ قاربنا ـ بعد كل مخاوف تلك الليلة · وما ان استقربنا المقام فى القارب حتى بدأنا فى تناول عشاء شهى · وأردنا ـ أنا وجورج ـ أن نتناول كاسين من الوسيكى لكننا لم نجد قطرة واحدة منه . فسألنا هاريس عما فعله بالويسكى ، لكنه لم يبد أدنى اشارة عما تبين أنه قد فهم ماذا نعنى بقولنا « ويسكى » ·· ولكن مونتموريننسى بدا عليه أنه قد فهم وأنه يعرف شيئا ما ولكنه لم يفصح عنه ·

نمت نوما عميقا فى تلك الليلة ، وكان من الممكن أن أنعم بنوم أفضل لولا هاريس · فقد استيقظت بعد أن شعرت به للمرة العاشرة يفتش القارب كله بمصباح يحمله بحثا عن ملابسه ·· أوه كم كان يبدو قلقا بشأن

ملابسه طوال الليل .. وقد دفعنى من مرقدى ودفع جورج أيضا ليرى ان كنا نرقد فوق سرواله ! وعندما فعلها ثانية ثار فيه جورج **وقال له بحدة :**

ـ لماذا بحق السماء تريد سروالك الآن فى منتصف الليل ؟ لماذا لا ترقد وتنام وتدعنا ننام ؟ !

أما أنا فقد شعرت أن هاريس يواجه مشكلة حقيقية وفى المرة التالية صحوت لأنه لم يستطع العثور على جوربه . وآخر ما تحتفظ به ذاكرتى المشوشة عن تلك الليلة هو أننى كنت اتقلب على جنبى عندما سمعت هاريس يهمهم بشىء ما عن اختفاء مظلته بطريقة غير عادية !

استيقظنا فى الصباح التالى فى وقت متأخر ، وتناولنا افطارا بسيطا ونظفنا القارب ، ووضعنا كل شىء فى مكانه . وفى حوالى العاشرة أطلقنا سراح القارب عازمين على الاستمتاع بيوم جميل من أيام رحلتنا .

فى البداية قال هاريس أنه يرى من الأفضل أن أقوم

أنا وجورج بالتجديف بينما يمسك هو بالدفة ·· أوه ! كان دقيقا بهاريس ـ ان هو تحرى العدل ـ أن يأخذ هو وجورج المجدافين ويدعا لى الدفة لاستريح قليلا · فقد كان من الواضح لى أننى اقوم بأكثر من نصيبى من العمل طوال هذه الرحلة وقد بدأت أتضايق حقيقة بسبب هذا الأمر ··

اننى دائما أقوم بقدر من العمل اكثر مما يجب على القيام به ·· ولم يكن العمل فى حد ذاته هو ما اعترض عليه ، فانا يمكننى أن أقوم بعمل شاق أربع ساعات متواصلة · ولا اعتقد أن هناك قدرا من العمل يرهقنى بالاضافة الى أننى دائم الاعتزاز والفخر بما أقوم به ·

ولكن وبالرغم من ولعى بالعمل ، فاننى أحب العدل أيضا · اننى لا أطلب أكثر من نصيبى ، ولكنى دائما أحصل على أكثر منه فى العمل ـ هذا على الأقل مايبدو لى ـ وهذا مايقلقنى ·· ولكن جورج قال انه لايجد أى مبرر لقلقى وضيقى بخصوص هذا الموضوع ، فهو

يعتقد أن خيالى هو الذى يجعلنى أتصور أننى أقـــوم باكثر من نصيبى فى العمل بينما أنا ـ فى رأيه ـ لاأقوم حتى بنصف مايجب على القيام به !

لقد لاحظت ـ فى هذا القارب ـ أن كل فرد يعتقـد أنه يقوم بكل العمل وحده . فهاريس يتصور أنه وحده الذى يعمل . بينما أنا وجورج فى غاية الكســـل . ولكن جورج ضحك من فكرة أن هاريس قد قام بأى عمل سوى الأكل والنوم ، فقد كان يعتقد أنه ـ أى جورج ـ قد قام بكل الأعمال التى يمكن ذكرها . وأضاف أنه لم ير أناسا أكثر كسلا منى ومن هاريس . وقد أضحك هذا هاريس وأثار سخريته فقال ضاحكا :

ـ ياللظرف ، أن جورج يتكلم عن العمل ! أن نصف ساعة من العمل لتقتله .

ثم توجه بالكلام الى قائلا :

ـ هل رأيته أبدا يقوم بأى عمل ؟

وقد أمنت على كلام هاريس بأننى بالتأكيد لم أر جورج يقوم بأدنى عمل طوال الرحلة .

ولكن جورج رد على هاريس بقوله :

ـ حسن ، اننى لا أفهم كيف يمكنك أن تحكم على عملى وأنت تقضى اكثر من نصف الوقت نائما ٠

ثم توجه بكلامه الى قائلا :

ـ أرأيت هاريس يقظا فى غير أوقات الطعام ؟

ودفعنى حب الحقيقة الى ان أؤيد جورج فيما ذهب اليه فقد كان هاريس يقدم القليل من العون طوال هذه الرحلة ٠

فقال هاريس :

ـ حسن ، اننى على أية حال قد قمت بعمل أكثر مما قام به « جيروم » ٠

واضاف جورج :

ـ لم يكن فى استطاعتك أن تقوم بأقل مما قام به ٠ ان « جيروم » يعتقد أنه مسافر على ظهر قاربنا وليس واحدا منا ٠

كان هذا هو الشكر الذى قدماه لى على احضارهما وقاربهما التعس عبر طول النهر من كنجستون الى هنا ، كان هذا هو شكرهما على ادارة كل شىء من اجلهمـــا والعناية بهما والعمل بجد كأننى عبد لديهما ٠

أه ٠٠ ماذا أقول ؟ هذا هو العالم الذى نعيش فيه !!

الفصل الرابع عشر

رياضــة التجـديف

اتفقنا ـ بعد جدال ـ على ان يجدف هاريس وجورج حتى « ريدينج » . وادفع انا القارب من هناك . ان التجديف بقارب ثقيل ضد تيار قوى اصبح من الأشياء غير الجذابة بالنسبة لى فى الوقت الحاضر . فقد مضى وقت طويل على الزمن الذى كنت أتحمل فيه بعض الصعاب . اننى الآن افضل أن أعطى الفرصة للشباب الأصغر سنا ليجربوا ويكتسبوا الخبرة بدورهم .

وقد لاحظت أن كل ذوى الخبرة ـ مثلى ـ يظهرون نفس القدر من التواضع والزهد فى الأعمال الصعبة او

عندما يتعلق الأمر بالتجديف الشاق على صفحة النهر ٠ فمن الممكن دائما أن ترى رجلا خبيرا مضطجعا على وسادة فى قاع القارب وهو يشـــجع الشـــباب الذين يقومون ـ فعلا ـ بالتجديف بأن يحكى لهم القصص والحكايات عن أعماله المجيدة التى قام بها فى العام الماضى ٠

فنجده يقول للشابين المتصببين عرقا من شدة الجهد الذى بذلاه فى التجديف :

ـ هل تسميان ماتقومان به الآن عملا شاقا ؟ ! اننى و « جيم بيفلزجاك » جدفنا ذات مرة من « مارلو » الى « جورينج » خلال عصر يوم واحد ـ فى العام الماضى ـ ولم نتوقف ولامرة واحدة ٠ ألا تذكر ياجاك ؟

ويتذكر جاك ـ الذى كان يرقد هناك فوق كل الأغطية التى تيسر له جمعها قاضيا الساعتين الماضيتين نائما ـ يتذكر وقد أيقظه السؤال الأخير أنه كانت تواجههم رياح قوية غير معتادة طوال الطريق ٠ بينما يضيف المتحدث الأول ـ وهو يتناول وسادة أخرى ليضعها تحت رأسه :

ـ انى اعتقد أن المسافة كانت حوالى أربعة وثلاثين ميلا !!

ولكن جاك يهمهم قائلا :

ـ لا .. لا تمط المسافة هكذا ياتوم ، فقد كانت ثلاثة وثلاثين ميلا على الأكثر !!

ويدرك الارهاق « جاك » وتوم من جراء مابذلاه من جهد فى الكلام فيغلبهما النعاس وينامان بينما يشعر الشابان بالزهو والفخر لأنهما يجدفان بقارب يحمل بطلين مثل جاك وتوم فيجدفان بحماس أشد من ذى قبل .

عندما كنت صغيرا ، كنت أستمع لمثل هذه الحكايات وأصدق كل كلمة فيها . ولكن يبدو أن شباب هذه الأيام ليسوا على نفس القدر من البراءة والسذاجة الذى كنا عليه نحن فى شبابنا .

ذات مرة أخذنا ـ جورج وهاريس وأنا ـ أحد الشباب معنا فى نزهة نهرية . وقصصنا على سمعه

كل هذه القصص المعتادة ، بل واضفنا سبع قصـــص أخرى من ابتكارنا · احداها يمكن لأى طفل صغير أن يصدقها بسهولة · ولكن بالرغم من ذلك كان هذا الشاب يضحك ساخرا منا ويطالبنا من وقت لآخر أن نعيد على سمعه حكايات أعمالنا المدهشة وكأنه يطرب لسماعها ·

فى هذا الصباح كنا نتجاذب أطراف الحديث حول خبراتنا السابقة ونحكى الحكايات عن أولى خطواتنا على درب فن التجديف ·

وكانت أولى ذكرياتى عن هذا الموضوع يوم أن كنا خمسة أصدقاء دفع كل منا ثلاثة بنسات واستأجرنا قاربا بنى بطريقة غريبة · وجدفنا به على صفحة بحيرة (ريجينت بارك) وانتهى بنا الأمر الى أن جففنا ملابسنا واجسامنا فى كوخ حارس الحديقة ·

وبعد هذا ، تدربت جيدا على الطفو بطوف خشبى فى البحيرات الصناعية · حيث تمدنا هذه التجربـــة باثارة أكثر مما يتخيل المرء ، خاصة عندما تكون فى وسط البحيرة ويفاجئك صاحب الأخشاب والمواد التى

صنعت بها الطوف ويقف على الضفة ممسكا فى يده بعصا غليظة !

ان أول ماتحس به عند رؤيتك لهذا الرجل النبيل هو أنك لا تجد في نفسك اية رغبة فى لقاء اى انسان أو ادنى ميل للمجادلة · وينتابك شعور أنه لو كان بامكانك أن تتسلل الى الضفة الأخرى وتعود للبيت بســـرعة وهدوء دون أن يراك هدا الرجل النبيل ودون أن تبدو جلفا لتجنبك اياه ، لفعلت هذا دون تردد ودون أن تلتفت اليه ··

ولكن الرجل يبدو ملهوفا على أن يلقاك ويمســك بتلابيبك ويتكلم معك !

وربما كان الرجل قريبا لوالدك ويعرف عنك الكثير ولكن هذا لايدفعك لأن تذهب اليه · وسيقول لك انه سيعلمك كيف تأخذ الواحه الخشبية وتصنع منها طوفا تركبه على صفحة الماء · ولكنك منذ أن عرفـت كيف تصنع هذا بنفســـك ، فانك ترفض هذا العرض غيـر الضرورى بالنسبة لك ، ولن تجد فى نفسك الرغبة فى

أن تسبب لهذا الرجل المهذب أية متاعب ان أنت قبلت هذا العرض .. وبالطبع هو يقصد فى الحقيقة أنه سيعلمك ـ بطريقته ـ الا تجرؤ ثانية على أخذ الواحه لتصنع منها طوفا ..

على أية حال فان رغبته فى مقابلتك واضحة ، والحيوية والعزيمة التى يجرى بها هنا وهناك لايتسنى له أن يكون موجودا عند البقعة التى ستنزل عندها بالطوف ، تثير فيك العزة والفخر حقا .

فان كان سمينا وأنفاسه مقطوعة فسيمكنك أن تتجنبه بسهولة ، ولكن عندما يكون شابا ونفسه طويلا فستجد نفسك مضطرا لمقابلته .. على أية حال ستكون المقابلة قصيرة جدا ومعظم الحديث سيكون من جانبه هو وفى اللحظة التى سيمكنك فيها أن تفر منه فستفعل دون توان .

قضيت ثلاثة أشهر فى التدريب على استخدام الطوف حتى اكتسبت من المهارة كل مايمكن اكتسابه فى هذا الفن فقررت أن أجرب التجديف الفعلى ، فالتحقت باحد أندية التجديف ..

وعلى صفحة نهر « لى » خصوصا فى أيام السبت عندما يكون مزدحما بالقوارب . سرعان ماتتعلم كيف تتعامل مع القارب وكيف تفلت من الاصطدام بالقوارب الأكبر وتتفادى الغرق ·

أما جورج فانه لم يقترب من الماء حتى بلغ السادسة عشرة من عمره · بعدها ذهب هو وثمانية من أصدقائه فى نفس عمره تقريبا الى بلدة « كيو » فى أحد أيام السبت ليستأجروا قاربا من هناك ويجدفوا بــه الى « ريتشموند » ثم يعودون ·· كان أحدهــم ويــدعى « جوسكين » قد استقل قاربا مرة أو مرتين قبل ذلك فوق بحيرة « سيربنتاين » فى حديقة « هايد بارك » ·· وجوسكين هذا هو الذى أقنعهم بأن ركــوب قوارب التجديف متعة عظيمة ·

كان تيار الماء شديدا عندما وصلوا الى المرسى ، وكانت هناك رياح عاتية تصفر فوق النهر ، ولكن هذا لم يمنعهم ن الذهاب واختيار قاربهم ··

كان بالقرب منهم قارب سباق ذو ثمانية أزواج من

المجاديف فانجذبوا اليه • وكان صاحب القوارب غائبا وكان صبيه هو الذى يتولى المسئولية ، وحاول الصبى اثناءهم عن أخذ قارب السباق وعرض عليهم عـــدة قوارب أخرى واسعة وعائلية ومريحة ولكنها كلها لم تعجبهم وزاد اصرارهم على أخذ قارب السباق • •

ومن ثم جهزه لهم الصبى وخلعوا معاطفهم استعدادا الآن يأخذوا أماكنهم فى القارب • ثم جلسوا فى أماكنهم • وجاء ترتيب جورج على المجداف الرابع • بينما اختار صبى عصبى المزاج أن يمسك بالدفة ، فشرح له جوسكين قواعد القيادة وتوجيه الدفة • أما جوسكين نفسه فكان رقم واحد فى الترتيب ليقود بقية المجموعة • واخـــذ جوسكين يطمئن الآخرين ويفهمهم أن الأمر غـــاية فى البساطة ، وكل ماعليهم هو أن يراقبوه ويفعلوا مثلما يفعل • وبعد دقائق صاح الجميع يعلنون استعدادهم فدفعهم صبى المرسى دفعة قوية •

لم يتمكن جورج من وصف ماحدث بعد هذا بدقة ، فهو فقط يذكر أنه ـ وبمجرد البداية ـ قد تلقى ضربة

عنيفة فى ظهره من مجداف رقم ٥ فانزلق مقعده من تحته واختفى اختفاء سحريا ووجد نفسه فجأة جالسا على سطح القارب ، وقد لاحظ أن رقم ٢ كان ملقى على ظهره في قاع القارب ورجلاه معلقتان فى الهواء !

وأخذ القارب يبتعد عن الشاطىء بسرعة ثمانيةأميال فى الساعة · ومروا من تحت كوبرى « كيو » وكان جوسكن هو الوحيد الذى يجدف بالفعل·وعندما حاول جورج ــ بعد أن استعاد مقعده ــ أن يساعده ، دفع المجداف في النهر ليضرب به الماء اختفى المجداف فى الحال تحت القارب وكاد يأخذ جورج معه · وفى نفس الوقت ألقى الولد العصبى حبلى الدفة فى الماء وانفجر باكيا !

لم يعرف جورج ــ أبدا ــ كيف استطاعوا العودة ولكنه يذكر أن الأمر قد استغرق أربعين دقيقة كاملة · ويذكر أنه كان هناك زحام من البشر وقفوا يشاهدونهم ــ وكأنهم يشاهدون عرضا فى السيرك ــ من فوق الكوبرى ، وكان كل واحد من المشاهدين يصيح موجها

لهم نصيحة مختلفة · ولثلاث مرات كانوا يعبرون من تحت الكوبرى ولثلاث مرات كانو ينجرفون تحت أقواسه ثانية · وكان الولد العصبى كلما رفع بصره ووجد الكوبرى فوق رأسه ينفجر باكيا · وبعد هذه الحادثة قال جورج انه لم يعد يتخيل مطلقا منذ هذا اليوم انه قد يستمتع بركوب القوارب فى يوم من الأيام ·

اما هــاريس فكان أكثر تعودا على التجديف فى البحر ·· وكان يفضل التجديف فى البحــر أكثر من التجديف فى النهر كنوع من انواع الرياضة · ولكننى لا اوافقه على هذا الرأى · فانا اذكر يوما أخذت فيه قاربا صغيرا عند شاطىء مدينة «ايستبورن» فى الصيف الماضى ·· كنت قد اعتدت على التجــديف الجيد فى البحر منذ عدة سنوات ، وتصورت أننى سأقوم به خير قيام · لكننى اكتشفت أنى قد نسيت كل مايتعلق بهــذا الفن فبينما كان أحد المجدافين يغوص عميقا فى الماء كان الآخر يطير منى فى الهواء ولكى امسك بالمجدافين باحكام واضعهما فى الماء معا كان على ان أجدف واقفا · وكان البحر مزدحما بالناس وكان على ان اجدف عابرا

اياهم بهذه الطريقة السخيفة • فرسوت عند منتصف الطريق على الشاطىء واستاجرت مراكبيا عجوز ليجدف بى عائدا •

اننى أحب أن أرقب المراكبى العجوز وهو يجدف خاصة عندما يكون مستاجرا بالساعة . فهناك شىء ما هادىء ومريح فى طريقته ، انه لايحب أن يتعارك أو يناور ليمر من القوارب التى تقابله • وان مر قارب آخر بجواره وسبقه فانه لاينزعج مطلقا •• فى الحقيقة •• هو يتركهم جميعا يمرون منه ويسبقونه •• بل انه يدع كل من يمر بنفس طريقه يسبقه دون أن يبالى بذلك •

ان هذا قد يسبب بعض المتاعب أو الضيق لبعض الناس • ولكنى أرى أن هذا التواضع الهادىء الذى يظهره هؤلاء المراكبيون المستاجرون فى مثل هذه المواقف يعلمنا دروسا رائعة فى الرضا والحد من الطموح •

يقول جورج أنه يفضل نوع القوارب الطويلة ذات القضيب الطويل الذى يدفع فى الماء حتى يصل الى

القاع فيدفع القارب للأمام ، وهو يحب أن يجربه كنوع من التغيير ، بدلا من المجاديف العادية ولكن هذه الطريقة ليست سهلة كما قد يبدو من الوهلة الأولى ، فهي تحتاج لتدريب طويل قبل أن يمكنك أن تؤديها بمهارة ·

فأنا أعرف شابا تعرض لحادث أليم عندما خـرج لأول مرة فى قارب من هذا النوع فبعد أن تدرب عليها حتى ظن أنه قد عرف عنها كل شىء ، أخذ أحد القوارب ونزل به الى النهر ، وكان يجرى فى القارب من الأمام الى الخلف ومن الخلف الى الأمام مستعملا مجدافه الطويل دون حذر أو حرص وكأنه أحد الخبراء فى هذا العمل ·

وكان من الممكن أن يستمر الحال على ماهو عليه لولا أنه ـ وبينما كان ينظر حوله ليتمتع بمناظر النهر خطا خطوة أكثر من اللازم ـ فكانت خطوة فى الفضاء خارج القارب وانغرس المجداف في الطين ، وظل هو معلقا عليه بينما جرف التيار القارب بعيدا · كم كان يستحق هذا الوضع بالفعل · وعلى الضفة الأخرى

صاح صبى جلف ينادى على صديق له كى يأتى ويشاهد هذا القرد المعلق على عصا فى وسط الماء ..

ولم أستطع أن أعاونه ، لأننا ولسوء حظـه لم نكن نحمل مجدافا احتياطيا . وكل ما استطعت أن أفعله هو أن أجلس وأنظر اليه . ولن أنسى ماحييت التعبير الذى ارتسم على وجهه عندما كان المجداف يغوص به فى الماء .

رأيته وهو يغرق ببطء ، ورأيته وهو يصارع من أجل الخروج بينما ملابسه كلها قد ابتلت . ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك على مظهره الأحمق . واستمر ضحكى عليه لبعض الوقت ثم أحسست فجأة أن الأمر لايستحق منى كل هذا الضحك فهأنذا وحيد فوق القارب بلا مجداف ، يحملنى التيار ولاحول لى ولاقوة فى وسط اليم .

وانتابنى شعور عارم بالغضب لأن صديقى الأرعن قد أضاع المجداف برعونته وجريه خارج القارب بتلك

الطريقة . ألم يكن عليه ـ على الأقل ـ أن يترك لـــى المجداف .

حملنى التيار لمسافة ربع ميل حتى اصـبحت على مرأى من قارب صديق كان ألقى بمرساته وسط النهر وعلى ظهره صيادان كبيرا السن . وعندما وقع بصرهما على وأنا أقترب مندفعا بقوة التيار منهما صرخا يطالباني بالابتعاد عن طريقهما ولكنى صحت قائلا :

ـ لاحيلة لى !

فقالا :

ـ ولكن لما لا تحاول ؟ !

فأوضحت لهما الأمر عندما اقتربت منهـــا أكثر ، فأمسكا بقاربى وأقرضانى مجدافا . آه ، لقد كان هناك مصب خلفهما بقليل ، لهذا فقد سعدت كثيرا بوجودهما فى هذا المكان .

فى أول مرة خرجت فيها بقارب من ذاك النوع ذى المجداف الطويل ، كنت فى صحبة ثلاثة رجال آخرين

كانوا معى ليعلمونى كيفية التجديف بهذه الطريقة ٠ ولما لم يتيسر لنا الخروج معا فى نفس الوقت قــررت ان اسبقهم الى النهر وانتظرهم حتى يجيئوا - وعندمــــا وصلت الى شاطىء النهر قررت ان انزل النهر بالقارب واجرب التجديف حتى يجيئوا ٠

لكننى لم استطع الحصول على قارب من هذا النوع عصر ذاك اليوم حيث كانت القوارب كلها قد أجرت ٠٠ لهذا لم يكن لدي ما افعله سوى الجلوس على الضفة انظر الى النهر وانتظر الاصدقاء ٠

ولم يمض على وقت طويل وانا على هذه الحــــال حتى شد انتباهى منظر رجل فى قارب طويل بمجداف من النوع الذى يدفع فى الماء حتى يقــابل القــــاع ٠ ولاحظت ـ مندهشــــا ـ انه كان يرتدي ســـــترة وكابا يشبهان تماما ماكنت ارتديه٠وكانكما بدا لى مبتدئا فى هذا المجال فطريقته فى الأداء كانت رديئة جدا ٠٠ أوه ، لا يمكنكم ان تتصوروا ماذا كان يحدث عندما كان يضع مجدافه فى الماء ٠٠ انه هو نفسه لا يعرف فى الحقيقة ٠

أحيانا كان يمضى مع التيار ، وأحيانا عكس التيار وأحيانا كان يدور حول نفسه ومع كل نتيجة يحصل عليها من عمله كان يندهش ويغضب فى نفس الوقت ..

وبمرور الوقت تحول انتباه كل الناس حول النهر الى النظر الى هذا الرجل ومراقبته ومحاولة التنبؤ بنتيجة ضربته القادمة فى الماء .

وأثناء هذا وصل أصدقائى الى الضفة المقابلة وأخذوا يشاهدونه بدورهم .. كان ظهره فى اتجاههم فلم يروا وجهه .. لم يروا سوى سترته و (كابه) فقط . فافترضوا أنه أنا .. وبما أن حبهم للبهجة والسرور لايعرف حق أية صداقة أو رابطة فقد بدأوا يضحكون عليه ويسخرون منه بلا رحمة .

ولم اكتشف خطأهم فى البداية ، بل قلت فى نفسى « يالهم من أجلاف ـ كيف يتصرفون هكذا تجاه رجل لايعرفونه أو يعرفهم » لكننى وقبل أن أنادى عليهم وأنبههم لخطئهم ، اكتشفت حقيقة الموقف فتسللت واختبأت خلف شجرة حتى لا يرونى ..

وكم سعدوا وتمتعوا بمحنة هذا الرجل المسكين .. وعلى مدى أكثر من خمس دقائق أخذوا يتصـــايحون ويضحكون ساخرين منه ، حتى فاض الكيل بالرجـــل فاستدار ناحيتهم ليوبخهم وكانت المفاجأة حينما رأوا وجهه !

وسرني كثيرا أن أراهم وقد غرقوا في خجلهم من منظرهم السخيف وتصرفهم الأحمق . وأخذوا يعتذرون للرجل ويوضحون له أنهم كانوا يظنونه شخصا آخـــر يعرفونه ، وأنهم يتمنون ألا يظن بهم الفظاظة وعـــدم اللباقة .

إني أذكر أن هاريس أخبرني ذات مرة عندما كان في بولونيا يستحم في البحر بجوار الشاطيء ، وأحس فجأة بصفعة قوية على قفاه ، ثم بيد ثقيلة تدفع رأسه بعنف تحت الماء . وكاد يختنق وأخذ يصارع بكل قوته ليخرج رأسه من تحت الماء ، ولكن يبدو أن صاحب اليد التي كانت تمسك برأسه كان يتمتع بقوة حصـــــان ، فضاعت كل محاولات هاريس للتخلص منه هبـــاء ،

فاستسلم وتخلى عن الرفس برجليه وحاول ان يتوجه بعقله الى الأشـــياء الخالدة فى الوجود وفى الحياة الآخرة وفى هذه اللحظة أخلى الرجل سبيله فجأة ٠٠

انتفض هاريس على قدميه ونظر حوله يبحث عن مهاجمه ٠ كان القاتل يقف الى جواره يضحك من اعماقه ولكنه ما أن رأى وجه هاريس حتى بدا عليه الارتباك الشديد وقفز للخلف مندهشا وقال فى تلعثم :

ـ انى ٠٠ انى حقيقة اسالك المغفرة ياسيدى لقد اخطأت و ٠٠ وظننتك واحدا من اصدقائى !

وغفر هاريس للرجل ، وقد احس فى قرارة نفسه أنه ـ أى هاريس ـ رجل محظوظ لأن هذا الرجل العملاق لم يظنه احد أقاربه والا كان قد اغرقه فعلا ٠٠ !

الفصل الخامس عشر

فن صيد السمك

وصلنا على مرأى من « ريدينج » في حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا · ولأن النهر في هذه البقعة قذر وممل ، فانه لا يحسن بالمرء أن يبقى طويلا في جوار هذه البلدة ·

عند هويس « ريدينج » صادفنا أصدقاء لنا في قاربهم البخاري وقد تكرموا علينا فسحبوا قاربنا خلفهم أوه ، كم يكون جميلا ان يسحب قاربك فوق صفحة الماء دونما جهد منك · ان القارب لينساب بنعومة ومرح ، لولا تلك القوارب الصغيرة ذات المجاديف والتي كانت

تعترض طريق قاربنا البخارى ـ أقصد قارب أصدقائى الذى يسحب قاربنا ـ اننا لكى نتجنب الاصطدام بهم نضطر للابطاء حتى نكاد نتوقف ٠

ان الأسلوب الذى يسير به أصحاب تلك القوارب الصغيرة يثير الغيظ فعلا ٠ أوه ، يجب أن يكون ثمة رادع لهؤلاء الناس ٠ انهم أجلاف يتمتعون بقدر كبير من الفظاظة ٠٠ انك لتستخدم نفير قاربك حتى تكاد الاته تنفجر لكى يتعطفوا ويقلقوا أنفسهم بأن يسرعوا فى الابتعاد عن طريقك ٠ يبدو أننى سأضطر لأن أغرق أحدهم من وقت لآخر ليكون عبرة للآخرين ٠

انفصلنا عن قارب أصدقائى البخارى عند بانجبورن ٠٠ وهنا حاول هاريس أن يقنعنى بأن هذا هو دورى فى التجديف ٠ ولكن هذا الكلام بدالى غير معقول ، فقد كان ما اتفقنا عليه فى الصباح هو أن أجدف بالقارب لمسافة ثلاثة أميال من « ريدينج » ٠حسن اننا الآن على بعد أكثر من عشرة أميال من « ريدينج » ! بالتأكيد هذا هو دورهم ـ هم ـ فى التجديف ٠

لكننى لم أستطع أن أجعل جورج وهاريس يرون الأمر على جليته كما كنت أراه · لهذا ومنعا للجدال امسكت انا بالمجاديف ·

تقع مدينة « جورينج » على احدى ضفتى النهر بينما تقع مدينة « ستريتلاى » على الضفة المقابلة · انهمـــا بقعتان ساحرتان ويتمنى المرء لو يقضى فى هذا المكان بضعة أيام · كنا قد عقدنا العزم – من قبل – على أن نصل الى « ولنجفورد » فى نفس اليوم · ولكن وجـــه النهر الباسم فى هذه البقعة الساحرة دعانا لأن نقضى فترة أطول معه فلبينا دعوته · وتركنا القـــارب عند الكوبرى ونزلت الى « ستريتلاى » لتناول الغداء · وكان الأمر يحمل فى حقيقته رغبة فى ارضاء مونتمورينسى بشكل كبير ·· !

ويقال أن التلال الواقعة على جانبى النهر هنا قد التحمت معا ذات مرة حتى صـــنعت جدارا عبر نهر التيمس ·· وأن النهر انتهى هنـــاك فوق « جورينج » صانعا بحيرة عظيمة ·· اننى لا استطيع أن أوافق أو

أعترض على هذه الحكـــاية الا أنى فقط أرددها كما سمعتها ٠

ان « ستريتلاى » تعد بقعة أثرية يعود تاريخها ـ مثل معظم المدن والقـــرى على هذا النهر ـ الى أيـــام البريطانيين والساكسون ٠ أما « جورينج » فهى ليست على نفس القدر من الجمال كستريتلاى وقد لاتجد فى نفسك الرغبة فى قضاء وقت طويل بها كالذى تتمنى أن تقضيه فى ستريتلاى ٠ ولكنها ـ على أية حال ـ بلدة جميلة وقريبة من محطة السكة الحديدية فى حالة ما اذا أردت أن تتسلل دون أن تدفع فاتورة الفندق ٠

مكثنا يومين فى « ستريتلاى » غسلنا فيهما ملابسنا فى البداية ـ وبناء على نصـــيحة جورج ـ حاولنا أن نغسلها بأنفسنا فى مياه النهر ٠ لكننا منينا بفشـــل ذريع ٠ بل بشىء أكثر من الفشل ٠ اننا أصبحنا أسوأ حالا بعد غسلها ٠ كانت ملابسنا ـ قبل غسلها ٠ غاية فى القذارة،هذا صحيح،لكن كان من الممكن أن نرتديها على أية

حال . وبعد أن غسلناها فى ماء النهر .. حسن . ان النهر فيما بين ريدينج وهنلاى أصــــبح أنظف بعد أن غسلنا فيه ملابسنا فقد تجمعت كل القذارة التى كانت موجودة فيه وتعلقت بملابسنا .. !!

وقالت لنا الغسالة التى ذهبنا اليها بعد ذلك فى ستريتلاى انه لكى نكون عادلين معها فانه يجب علينا أن ندفع لها ثلاثة أمثال الأجر الذى يدفع لنفس الكمية من الملابس ، واضاف أنه لم يكن غسيلا بل كان أشــــبه بعملية الحفر . وبالطبع دفعنا الفاتورة دون أن ننبس بحرف واحد .

ويعتبر النهر عند مدينتى ستريتلاى» و «جورينج» من مراكز الصيد الكبيرة ، فالنهر فى هذه البقعة ملىء بكل أنواع السمك ، ويمكنك ان تجلس وتصطاد طوال اليوم . بعض النــاس يفعلون ذلك ، لكنهــــم أبدا لا يحصلون على شىء .. فلم يحدث أن رأيت ـ مطلقا ـ شخصا قد اصطاد شيئا أكثر من سميكات لاتصلح للأكل أو بعض القطط الميتة . لكن هذا بالطبـــع لايحول دون

ممارسة الصيد ! ·· ودليل الصيادين المحليين لايقول كلمة عن اصطياد شيء ، وكل مايقوله هو أن النهر فى هذه البقعة مكان جيد للصيد · ومما شاهدته أصبحت مستعدا لتأكيد هذه المقولة ·

فلا يوجد مكان فى العالم يمكنك فيه أن تمارس الصيد أكثر من هنا ·· بعض الناس يأتون الى هنا ويقضون يوما كاملا فى صيد السمك ، وآخرون يمكثون الشهر ، ويمكنك ــ ان أردت ــ أن تقضى العام بطوله تصطاد ·· فالنتيجة فى كل الأحوال لن تتغير ·

يقول « دليل الصيد فى نهر التيمس » « يمكنك الحصول على سمك البرش هنا » ولكن الدليل أخطأ فى هذه العبارة · اذ ان سمك البرش ربما يكون موجودا ــ وبكثرة ــ فى تلك البقعة ، بل أنه يمكنك أن ترى أسماك البرش وهى تسبح بأعداد كبيرة بالقرب منك وأنت تتمشى على الشاطىء · وقد تأتى وتقف ونصفها العلوى خارج الماء فاتحة أفواهها لتلتقط فتات الخبز · واذا حدث ونزلت فى النهر للاستحمام فانها تتزاحم

حولك وتضايقك · ولكنها أبدا لا يمكن اصطيادها بدودة صغيرة فى نهاية سنارة أو ما شابه ذلك ·

فى الحقيقة أنا لست صيادا ماهرا · كنت قد أوليت هذا الأمر اهتماما كبيرا لفترة ما وكنت قد أحرزت ـ فيما أتصور ـ بعض التقدم · ولكن الصيادين الأكبر سنا والأكثر خبرة منى ، قالوا لى أننى لن أفلح أبدا فى هذا المضمار ونصحونى بالتخلى عن هذا الموضوع ··

وأضافوا أننى ألقى الخيط باتقان كاف ، كما يبدو أننى أملك احساسا جيدا وهدوءا طبيعيا ولكنهم فى نفس الوقت متأكدون انى لن أكون صيادا ، وهذا لأننى لا أملك قدرا معقولا من الخيال ·

فبعض الناس يعتقدون أنه لكى تكون صيادا ماهرا فان كل ماتحتاجه هو القدرة على سرد الأكاذيب دون أن يحمر وجهك ·· ولكن هذا الاعتقاد اعتقاد خاطىء · فالقاء الاكاذيب غير الفنية يعتبر أمرا عديم النفع ·· فحتى المبتدئين يمكنهم أن يفعلوا هذا · ولكن المهارة الحقيقية تكمن فى سرد التفاصيل الفنية واللمســات

الصغيرة واضفاء جو من الحقيقة على ماتقول · وهذا هو مايتمتع به الصيادون ذوو الخبرة ·

ان اى انسان يستطيع ان يأتـــى ويقول : « أوه ، لقد اصطدت مساء الأمس خمس عشرة دستة من سمك البرش » ! ·· أو يقول : « لقد اصـــطدت يوم الاثنين الماضى سمكة سلمون مرقطة تزن ثمانية عشر رطـــلا وطولها اكثر من ثلاثة اقدام من الأنف حتى الذيل » ·· وهكذا ، لافن ·· ولامهارة فى مثل تلك الاقاويل · انها قد تظهر قدرا من الشجاعة لا اكثر ·

لا ·· ان الصياد الماهر لا يمكن أن يحكى اكذوبة بهذه الطريقة · بل ان طريقته يجب أن تدرس فى حـــد ذاتها · انه يدخل بهدوء وقبعته على راسه ثم يجلس فوق أوثر المقاعد ويشعل غليونه ويأخذ فى التدخين ويترك الشباب الأصغر سنا يتحدثون عن انفسهم لبعض الوقت · ثم وخلال لحظة صمت يخرج غليونه من فمه ويطرقه عدة طرقات ليخرج منه الرماد ويعلق بقوله :

ــ لقد حصلت على صيد جيد مساء يوم الثلاثاء الماضى ·· ولكن لا يجمل بى أن احكى لكم عنه ··

فيسالون بشغف :

ـ اوه ، لماذا ؟

فيقول بثقة وهدوء ودون أدنى ارتعاشة فى صوته ، بينما هو يملأ غليونه بالتبغ ويطلب من صاحب الحانة كأسا من الشراب :

ـ لأننى لو فعلت فلن يصدقنى أى منكم !

ويعقب عبارته تلك صمت تام · حيث انه لايوجد بين الحاضرين من يجد فى نفسه الوقاحة ليجـــادل النبيل العجوز · وهكذا فان عليه أن يستمر دون أن يدفعه أحد ، فيقول بوقار :

ـ أوه ! اننى ماكنت لأصدق هذا انا نفسى ان جاء اى شخص وحكاه لي · ولكنه حقيقي · كنت قد جلست على الشاطىء طيلة العصر ، ولم اصطد شيئا يذكر سوى بضع عشرات من سمك السلمون وسلة مملوءة باسماك البرش ·· وكنت على وشك اقناع نفسى بالاكتفاء بهذا والعودة الى البيت ، الا انى احسست فجأة بجذبة قوية

فى خيط السنارة ، فظننت أنها ربما تكون سمكة صغيرة أخرى واوشكت أن أشدها ولكنى تلقيت صدمة ٠٠ لم استطع أن أشد الخيط ! واستغرق منى الأمر نصف ساعة ٠٠ نعم نصف ساعة ياسادة ! لأستخرج السمكة من النهر وكنت أشعر بالسنارة وهى تكاد تتكسر فى أية لحظة ٠ أخيرا أخرجت السمكة ، وماذا تعتقدون أنى وجدت ؟ كانت سمكة الحفش(١) ! نعم سمكة حفش تزن أربعين رطلا تصطاد بسنارة ياسادة ! أجل ، من حقكم أن تندهشوا ٠٠ كأسا أخرى من الويسكى لو سمحت !

ثم يستمر فى الحكاية فيخبرك بمدى الدهشة التى انتابت كل من رأى سمكته وماذا قالت زوجته عندما عاد الى البيت ، وعن أحاديث الجيران عن السمكة الهائلة !

ذات مرة سألت صاحب فندق قريب من النهر عما اذا كان لايشعر بالتعب أحيانا من جراء الاستماع لحكايات الصيادين ٠ **فقال لى :**

---

(١) سمكة الحفش هى نوع من السمك الكبير يستخرج منها البيض الذى يصنع منه الكافيار .

ـ أوه ، كلا · ليس الآن ياسيدى · كانت تدهشنى قليلا فى البداية ، ولكنى وزوجتى نسـتمع اليهم الآن طول اليوم · أوه ، لقد تعودنا على هذه القصص ·· تعودنا عليها تماما ·· !

أود أن أقص عليكم الآن حكاية شاب عرفته وكان من أكثر من عرفتهم صدقا ·· لقد قرر هذا الشـاب مرة ألا يزيد عدد الأسماك التي يصطادها ـ عندما يحكي عنها ـ الا بمقدار خمسة وعشرين بالمائـة فقط · فكان يقول لنفسه :

ـ عندما أصطاد أربعين سمكة ، سأقول للناس انى اصطدت خمسين ·· وهكذا · لكننى لن أكذب أبـدا وأدعى أكثر من هذا · لن أكذب لأن الكذب شـيء كريه !

ولكن ، ولسوء الحظ ، لم تصلح خطته ـ فى اضافة خمسة وعشرين بالمائة ـ فى كل الأحوال لأن أكبر عدد اصطاده فى أى يوم من الأيام لم يزد على ثلاث سمكات ·· وبالطبع لايمكن اضافة خمسة وعشرين بالمائة لهذا

العدد .. على الأقل لايمكن هذا بالنسبة لحساب عدد الاسماك .. لهذا قرر صديقى أن يزيد النسبة الى ثلاثة وثلاثين وثلث بالمائة .. ولكن حتى هذه النسبة وجد أنه من الصعب حسابها عندما يكون المحصول سمكة واحدة أو اثنين . وعلى هذا فقد قرر أخيرا ان يزيد الكمية ـ فى ادعاءاته ـ الى الضعف !

وقد ظل هذا الشاب يسير بهذه الطريقة لمدة شهرين ثم بدأ يشعر بعدم الرضا . فلا أحد يصدقه عندما يقول أنه زاد عدد ما اصطاده ـ فى الحقيقة ـ الى الضعف فقط . وبهذا لم يجن أى مجد بهذه الطريقة . ان محاولته ان يكون أكثر أمانة من الآخرين لم تضر بأحد غيره . فمثلا عندما اصطاد ذات مرة ثلاث سمكات وقال انه اصطاد دستة ، أحس بالغيرة عندما سمع رجلا ـ يعلم تماما أنه لم يصطد سوى سمكة واحدة ـ سمعه يقول للناس أنه قد اصطاد (دستة) من السمك .

وهكذا وفى النهاية ، قرر منذ تلك اللحظة قرارا جعله دستوره ، وهو أن يحسب كل سمكة يصطادها

بعشرة سمكات وأن يحرص دائما على أن يضيف عشر سمكات كبداية فمثلا ، اذا لم يكن قد اصطاد أى شيء فانه سيقول أنه قد اصطاد عشر سمكات • وهكذا وبهذه الطريقة لايمكن للمرء ان يصطاد أقل من عشر سمكات بأية حال من الأحوال • ثم واذا صادفه الحظ واصطاد سمكة واحدة ، فانه سيقول أنه قد اصطاد عشرين ، والسمكتان ستصبحان ثلاثين والثلاثة اربعين وهكذا •

كانت فكرة بسيطة وقد وجدها ناجحة تماما • بل كان هناك اتجاه لتعميمها ولكن بعض كبار الصيادين عارضوها وقال انهم قد ينظرون اليها بعين الاعتبار ، ان تضاعف العدد وصارت كل سمكة تحسب بعشرين سمكة !!

الفصل السادس عشر

معلومات أخرى عن فن صيد السمك

كثيرا مايكون من المثير أن تزور فندقا صغيرا من تلك الفنادق الصغيرة التى تقع على ضفاف النهر . وتتخذ لك مكانا عند البار · ومن المؤكد أنك ستقابل واحدا أو اثنين من الصيادين الكبار سنا ·· ولسوف يحكون لك من القصص والحكايات عن الصيد خلال نصف ساعة مايصيبك بالاعياء لشهر بطوله ·

كنت أنا وجورج ـ لانى لا أدرى ماذا حدث لهاريس الذى خرج مبكرا عصر ذلك اليوم ـ لهذا كنت أنا

وجورج والكلب مونتموريسي وحدنا ·· فخرجنا نتمشى وتوجهنا الى « والنجفورد » ·· كان ذلك فى مساء اليوم الثانى لنا فى ستريتلاى ·· وفى طريق عودتنا دلفنا الى فندق صغير على شاطىء النهر ·

توجهنا الى البار وجلسنا امامه ، وكان ثمة رجل عجوز يجلس عند البار ويدخن غليونا طويلا منحنيا · وبالطبع ـ وبعد برهة قصيرة ـ بدأنا نتجاذب أطراف الحديث ·

قال لنا أن اليوم كان جميلا ، وقلنا له أن الأمس أيضا كان جميلا ، ثم قال كل منا للآخر أن الغد ربما سيكون يوما جميلا أيضا ·· واضاف جورج أن المحاصيل هنا تنمو جيدا · ثم ، وبعد هذا الحوار القصير لا أدرى كيف تطرق الحديث الى كوننا غرباء عن هذه المنطقة والى أننا سوف نغادرها غدا فى الصباح ·

مرت بعد هذا الحديث فترة صمت جالت فيها أبصارنا أنا وجورج ـ خلال القاعة ثم استقرت فى النهاية عند صندوق زجاجى قديم يعلوه التراب معلق هناك فوق

المدفأة وبداخله سمكة سلمون مرقطة هائلة · وقد ملأتني هذه السمكة عجبا ، ولأول وهلة ظننتها سمكة الحفش(١) لفرط ضخامتها ·

قال الرجل العجوز وقد لاحظ ماتحملق فيه :

ـ آه ! انها سمكة ظريفة ·· أليست كذلك ؟

فهمهمت مندهشا :

ـ بل عجيبة جدا !

وسأل جورج الرجل العجوز عن وزنها كم يبلغ بالتقريب ؟ فأجابه الرجل وهو يقوم ويرتدي معطفه :

ـ ثمانية عشر رطلا ونصف · أجل ·· كان هذا منذ ستة عشر عاما في يوم مثل العاشر من الشهر القادم تقريبا ، عندما اصطدت هذه السمكة ! ·· لقد امسكت بها تحت الكوبري تماما ·· قالوا لي انها موجودة بالنهر ، فقلت لهم اني سأصطادها ·· وقد

---

(١) الحفش (بفتح الحاء وسكون الفاء) نوع من الأسماك الضخمة يستخرج منها الكافيار ·

فعلت ! ·· انكم ـ على ما اظن ـ لاترون أسماكا بهذا الحجم كثيرا هذه الأيام · عمتم مساء ياسادة ·· عمتم مساء ··

ثم خرج وتركنا وحدنا · ولم نستطع أن نرفع أعيننا عن هذه السمكة · كانت بالفعل سمكة رائعة · وكنا مازلنا نحملق فيها عندما دخل الحمال الذى كان قد أوقف عربته ـ لتوه ـ امام باب الفندق ودخل الى صالة (البار) ونظر بدوره الى السمكة · فاستدار اليه جورج قائلا :

ـ سمكة سلمون ذات حجم جيد · أليس كذلك ؟

فرد عليه الرجل قائلا :

ـ آه ! ربما ستقول انكم ياسيدى ·· ربما لم تكونوا هنا عندما اصطيدت هذه السمكة ؟

فاجبناه فى صوت واحد :

ـ لا ·· اننا غرباء عن هذه المنطقة !

فقال الحمال :

ـ اه ٠٠ اذن كيف يتسنى لكـــم اذن أن تعرفوا القصة ؟ كان هذا منذ خمس ســـــنوات عندما قمـــت باصطياد تلك السمكة !!

فسألته مندهشا :

ـ أوه ! أكنت أنت من اصـــطاد ذلك الســـمكة العظيمة ؟ !

فقال الرجل العجوز خفيف الظل :

ـ أجل ياسيدى ، اصطدتها من تحت برج الساعة تماما ، فى عصر أحد أيام الجمعة ٠ كنت قد خرجـــت للصيد ، لأصطاد بعض أسماك البرش ، ولم أكن أفكر مطلقا فى السلمون المرقط ٠ وعندما رأيت هذه السمكة الهائلة فى طرف سنارتى أصبت بصدمة حقيقية ٠٠ فكما ترون انها تزن ستة وعشرين رطلا ٠ عمتم مساء ياسادة ٠٠ عمتم مساء !!

وبعد خمس دقائق اخرى دخل رجل ثالث ووصف لنا كيف انه اصطاد هذه السمكة ذات مرة فى الصباح

الباكر ، ثم خرج .. وبعدها دخل رجل فى منتصف العمر تبدو عليه امارات الوداعة والهدوء وجلس هادئا بجوار النافذة ..

وظللنا صامتين لفترة واخيرا استدار جورج نحو الرجل وقال فى تأدب :

ـ أستميحك عذرا ياسيدى ، أرجو ان تغفر لنا تطلعنا ، اننا غرباء عن هذه البلدة . وسأكون انا وصديقى فى غاية الامتنان لو انك حكيت لنا كيف استطعت أن تصطاد هذه السمكة السلمون المرقطةالمعلقة هناك !

فرد علينا الرجل مندهشا :

ـ لماذا ! من أخبركم انى ـ انا ـ من اصطاد سمكة السلمون هذه ؟

فقلنا بسرعة :

ـ ان احدا لم يخبرنا ولكننا احسسنا بطريقة ما انك أنت الذى اصطدتها .

فرد علينا الرجل ضاحكا :

ـ انه لشيء مدهش ·· مدهش جدا · لأنكـــم ـ والحق يقال ـ قد وقعتم على الصـــواب بعينه ·· انا فعلا اصطدتها · ولكن تخيلوا كيف كان ذلك ! ياسادتي الأعزاء لقد كان حقا شيئا مذهلا !

ثم اخذ يحكي لنا كيف استغرق منه استخراجها من الماء نصف ساعة كاملة ، وكيف انكسرت (بوصة) سنارته ، واضاف انه وزنها بدقة عندما عاد الى بيته فوزنت اربعة وثلاثين رطلا !

خرج هذا الرجل بدوره ، وما ان غادر المكان حتى دخل صاحب الفندق فحكينا له عن القصص المختلفة التي سمعناها عن سمكته · وقد سره هذا كثيرا وغرقنا جميعا في ضـــحك من القلب · ثم قال لنا الرجل الصادق وهو مازال يضحك :

ـ هل قال لكم كل من « جيم باني » و « جو ماجلز » والسيد « جونز » و « بيلي موندرز » العجوز انه هو الذي اصطادها ! ها ! ها ! ها ! ·· ان هذا جميل جدا ها ! ها ! ·· اجل انهم من النوع الذي من الممكن ان يصطاد

السمكة ويعطونى اياها عن طيب خاطر لأضمها فى بارى ! ·· انهم ·· انهم ها ! ها !!

ثم بدا يحكى لنا عن التاريخ الحقيقى للسمكة · وقد ظهر انه هو الذى اصطادها بنفسه ، منذ عـــدة سنوات ونصف عندما كان لايزال صبيا · ولم تكن هناك مهارة فى الموضوع ، فالأمر كان حسن حظ بلا حدود · ذلك الحظ الذى يلازم صبيا تغيب عن مدرسته بدون اذن وخرج للصيد فى عصر احد الأيام المشمسة ·· بقطعة صغيرة من الخيط بآخرها سنارة ثبتت بعصا ··

وقال أن احضاره لسمكة السلمون الهائلة معه الى البيت قد أنقذه من علقة ساخنة بالسوط ·· وحتى مدير المدرسة قال أنها تستحق الهروب من عدة دروس جيدة ··

وخرج الرجل من القاعة عند هذه النقطة فى الحديث ومرة أخرى استدرنا ببصرنا ـ أنا وجـــورج ـ نحو السمكة المعلقة على الحائط · كانت حقا سمكة مدهشة ·· وكلما نظرنا اليها ازداد اعجابنا بهـــا ·· وقـد



سمكة السلمون العجيبة !

اثارت جورج لدرجة انه صـــعد فوق ظهر مقعد لينظر اليها عن كثب ٠

وانزلق المقعد فجاة وتشبث جورج بعنف بالصندوق الزجاجى لينقذ نفسه ، فسقط الصندوق منسحقا وفوقه جورج والمقعد ٠٠ !!

فصرخت محذرا وانا اندفع نحوه :

ـ ارجو الا تكون قد اذيت الســـمكة ، ام تـراك فعلت ؟ !

فنهض جورج وهو يقول :

ـ ارجو الا اكون قد فعلت ٠

ولكنه فعلها ، كانت سمكة السلمون قد تكسرت الى الف قطعة،ربما كانوا تسعمائة قطعة فقط فانا لم احصها بدقة ٠

واندهشنا ـ أنا وجورج ـ **لان سمكة السلمون** قد تكسرت الى كل هذه **القطع الصغيرة · بالطبع كان** هذا الامر سيكون مثيرا للعجب **لو ان السمكة كانت** حقيقية.لكنها لم تكن كذلك فى الواقع·**فسمكة السلمون** المرقطة ذات التاريخ لم تكن سوى **تمثــال من الجبس** صنع فى باريس !!

الفصل السابع عشر

من ستريتلاى الى أوكسفورد

غادرنا ستريتلاى فى الصباح التالى مبكـرين ·· وجدفنا حتى وصلنا الى كالهام ، وهناك قضينا ليلتنا فى ركن من النهر تستره الأشجار ·

ان النهر فى المسافة من ستريتلاى الى والينجفورد لا يعتبر مشوقا للغاية · وابتداء من كليف وعلى امتداد ستة اميال كاملة،يسير النهر مستويا دون هويس واحد· وأعتقد أن هذا هو أطول امتداد منبسط للنهر يمكن أن تقابله فيما فوق مدينة (بيدينجتون) وقد استغله نادى اوكسفورد للتجديف ·

ولكن ، وبقدر مايكون غياب الأهوسة مرضيا لمحبى رياضة التجديف ، بقدر مايكون محبطا لهؤلاء الذين ينشدون المتعة بالترحال عبر النهر ·

أنا شخصيا مغرم بالأهوسة أشد الغرام ·· انها تكسر رتابة الرحلة ، فكم هو ممتع الجلوس فى القارب فى هدوء بينما هو يرتفع ببطء من الأعماق الباردة الى امتداد جديد للنهر ذى مناظر جديدة ناضرة · أو وهو يهبط الى أسفل هاربا من العالم الى أعماق مظلمة ، ثم وأنت تنتظر حتى تنزلق البوابات الحديدية الثقيلة منفتحة بينما يزداد ضوء النهار المتسرب خلال ثغراتها اتساعا حتى ينفتح النهر الباسم امامك · وأنت تدفع قاربك الصغير ليخرج من سجنه المؤقت الى احضان التيمس المرحبة بك مرة ثانية ··

وستجدهم قوما ظرفاء ـ اقصد هذا الحارس السمين لبوابة الهويس ، أو زوجته ذات النظرات الوديعة ، أو ابنته ذات العيون البراقة ·· ستجدهم ظرفاء وهم يحدثونك بأخبار النهر بينما أنت تعبر الهويس · لسوف

تسعد بمقابلة قوارب اخرى لأناس آخرين يعبرون معك الهويس ٠٠ آوه ! ٠٠ ان التيمس ليفقد الكثير من سحره ان هو خلا من تلك البوابات المكسوة بالأزهار والتى نسميها أهوسة ٠٠

ان الحديث عن الأهوسة ذكرني بحادثة ـ قريبة ـ حدثت لي انا وجورج ذات صيف في ساحة هامبتون ٠٠

كان يوما مجيدا ، حيث كان الهويس مزدحما ٠٠ وكما يحدث دائما على طول النهر ، كان هناك مصور يأخذ صورا لنا جميعا ونحن نرقد فوق الماء الصاعد ٠

لم الحظ مايحدث من البداية ، لهذا اندهشت لرؤيتي جورج وهو يفرد سرواله ويصفف شعره بسرعة ويضع (كابه) على مؤخرة راسه ٠٠ ثم وقد اكتسى وجهه بتعبير هو مزيج من الألفة والحزن الخفيف ، ويجلس بوداعة محاولا اخفاء قدميه ٠٠

كان أول ماخطر بذهني هو انه ربما وقع بصره على سيدة ممن يعرفهن وأخذت أدور ببصرى لأرى من تكون ٠٠ كان كل الناس قد تحولوا فجأة الى تماثيل

حجرية ! ٠٠ كانوا جميعا قد وقفوا او جلسوا متخذين اكثر الأوضاع عجبا وغرابة ٠٠ كل الفتيات كن يبتسمن ٠٠ وكم كن جميلات وهن يفعلن ذلك ٠٠ وكل الرجال اكتست وجوههم بأمارات الجدية والنبل ٠٠ !

وأخيرا ومضت الحقيقة فى عقلى وخشيت أن يكون الوقت المناسب قد فاتنى ٠ كان قاربنا هو أول قارب فى العبور ٠ ووجدت أنه من غير اللائق أن افسد صورة الرجل ، فاستدرت بسرعة واتخذت وضعا مناسبا عند أنف القارب ـ أقصد مقدمته ـ حيث ملت بلا مبالة فوق مخطاف القارب لأكسب الصورة مظهرا حيويا فيه قوة . ورتبت شعرى وجعلت خصلة تتدلى فوق حاجبى وأكسبت وجهى تعبيرا جادا ممزوجا بمسحة سخرية قيل لى أنها تناسبنى !

وبينما نحن نقف مستعدين للحظة الحاسمة . اذ بى أسمع من يصيح خلفى قائلا :

ـ هيه ! راقب أنفك !

ولم استطع ان استدير للخلف لأرى مايحدث او

أعرف أنف من تلك التى يجب أن تراقـــب ·· ولمحت بطرف عينى أنف جورج · كانت بخير ـ على الأقل لم يكن بها مايمكن اصلاحه ـ ونظرت الى أسفل ـ الى أنفى أنا ـ ولكنها هى الأخرى بدت كما يتوقع المرء أن تكون ·

ولكن الصوت جاءنا اقوى هذه المرة :

ـ انظر الى انفك ايها الغبى !

ثم سمعنا صوت آخر :

ـ ادفعا انفكما للخارج ·· الا تتحركان انتما ·· انتما يامن بصحبة الكلب !

لم اجرؤ ـ لا انا ولا جورج ـ على الاستدارة لأن اصابع الرجل كانت على زر الكـــاميرا فى وضـــع الاستعداد ·· والصـــورة قد تلتقط فى اية لحظة ·· ولكن ، هـــل كنا نحن من ينادون عليهما ؟ ·· وماذا أصاب أنفينا ؟ ·· ولماذا علينا أن ندفع أنفينا للخارج ؟ ·· الآن صار كل من فى الهويس يصرخون ، **وصـــاح صوت قوى من الخلف قائلا :**

ـ انظر الى قاربك ياسيدى ، أنت يامن ترتـــدى

كابا احمر فى أسود ، ان لم تسرعا فان جثتاكما هما اللتان ستظهران فى الصورة ·

التفتنا بسرعة فالفينا مقدمة قاربنا وقد انحشرت تحت المزلاج الخشبى للهويس بينما كان الماء يرتفع رافعا كل جوانب القارب معه تاركا مقدمته غارقة ·· كان من الممكن أن نلقى الهلاك فى اللحظة التالية لولا أننا أخذنا مجدافا وفى سرعة البرق دفعنا جانب الهويس دفعة قوية حررت القارب وألقت بنا منبطحين على ظهرينا ··!

ولم نظهر ــ أنا وجورج ــ بشكل جيد فى الصورة · بالطبع كان من سوء حظنا أن الرجل التقط الصورة التعسة فى اللحظة التى كنا فيها منبطحين على ظهرينا وعلى وجهينا تعبير أبله ·· بينما كانت أرجانا تتحرك بجنون فى الهواء ·

وهكذا كانت أقدامنا هى بالتأكيد البطل الرئيسى فى الصورة · فى الحقيقه هى لم تترك مكانا ! الا للقليل الذى يظهر الى جوارها فقد كانت تملأ المواجهة تمامـا وخلفها يمكنك أن ترى أجـزاء صـــغيرة من القوارب الأخرى التى كانت بجوارنا ··

وبالطبع كان كل ماعداها يبدو تافها وصغيرا الى جوار أقدامنا التى احتلت أهم ركن فى الصورة · لهذا شعر بقية الناس بالخجل ، ورفضوا أن يشتروا نسخا من تلك الصورة ··

حتى أن أحد أصحاب القوارب البخارية ـ والذى كان قد أوصى بست نسخ ـ رفض أن يتسلمها أو أن يدفع بنسا واحدا من ثمنها عندما رأى النتيجة النهائية للتصوير · وقال أنه من الممكن أن يأخذ هذه الصور لو أن أى انسان يستطيع أن يريه ولو جزءا من قاربه ، ولكن أحدا لم يستطع فقد كان قاربه يختبىء فى مكان ما خلف قدم جورج اليسرى !

وغلف الموضوع كله جو من التعاسة · فقد طالبنا المصور أن يشترى كل منا ـ أنا وجورج ـ دستة نسخ من الصورة بما أن تسعة أعشار الصورة يخصنا نحن ولكنا رفضنا وقلنا اننا لم نكن نريد على الاطلاق صورة بالحجم الكامل ولكننا كنا نحب فقط أن تلتقط صورتنا ونحن معتدلين ·· !

أخذت الأرض ـ حول النهر من والينجفورد الى دوشستر ـ تزداد امتلاء بالتلال الجميلة وتزداد جاذبية ·· وتقع دو شستر على مسافة نصف ميل من النهر ، ومن الأفضل لو نحن تركنا القارب بالقرب من الهويس ثم نسير عبر الحقول فى تلك المنطقة ، وهى بقعة هادئة وجميلة وقديمة · تقبع فى صمت وسكون و ·· نعاس ·

يتخذ النهر حول « كليفتون هامبدن » ـ وهى قرية رائعة الجمال هادئة قديمة الطابع وتحفها الأزهار ـ منظرا غنيا رائعا ·· وفى تلك القرية فندق صغير قديم يقع الى اليمين من الكوبرى على أطراف القرية ، وهذا الفندق له شكل كتاب الحكايات من الخارج وداخلـه أشبه ـ هو الآخر ـ بالحكايات القديمة !

فى الحقيقة هو لا يمكن أن يكون مكانا لائقا ببطلة من بطلات القصص الحديثة · ان بطلة الرواية الحديثة «طويلة كالهة» وهى دائما ترتفع بقامتها الى أقصى ارتفاعها ·· وفى هذا الفندق القديم الطابع ، لابد ان راسها كان سيرتطم بالسقف عند كل محاولة منها لتفعل هذا ·

استيقظنا مبكرين فى صباح اليو التالى اذ كنا نود أن نصل أوكسفورد بحلول العصر ٠٠ انه لمن المدهش مدى التبكير فى الاستيقاظ عندما ننام فى الخلاء ٠٠ ان المرء لا يطمع فى خمس دقائق من النوم اكثر مما ينام راقدا ملفوفا ببطانية وقد توسد حقيبة جلدية وكأنه ينام على فراش من ريش النعام ٠ انتهينا من تناول الافطار وعبرنا هويس كليفتون فى حوالى الثامنة والنصـــف صباحا ٠

ومن كليفتون وحتى بلوغ الهويس التالى ، كانت الأرض حول النهر منبسطة وغير مشوشة ٠ ولكن بعد هذا يتحسن المنظر ثانية ٠ لدرجة ان الهويس والطاحونة عند (افلاى) يعد ان من الموضوعات المفضلة لـــدى الرسامين المحبين للنهر ٠٠ ولكن المنظر الحقيقى يبدو أقل جمالا من صورته ٠ قليل جدا من الأشياء فى هذا العالم التى تبدو على نفس بهاء صورتها وجمالها ٠٠

عبرنا هويس « لفلاى » فى حوالى الثانية عشرة والنصف ، ثم نظفنا القارب وأعددنا كل شىء للرسو واندمجنا فى العمل طوال الميل الاخير ٠٠

وتعتبر المسافة بين افلاى واوكسفورد اصعب جزء فى النهر على ما اعلم .. فانت فى حاجـــة لأن تكون مولودا فى هذه البقعة كى تحسن فهمها . فبرغم انى جئت الى هنا عدة مرات ، الا انى حتى الآن لاأستطيع السيطرة عليها .. ففى البداية ستجد التيار يدفعك الى الضفة اليمنى للنهر ثم يتغير فيدفعـــك للضـــفة اليسرى .. ثم يسحبك الى الوسط ويجعلك تدور حول نفسك ثلاث مرات ثم يدفعك للامام ثانية ودائما ينتهى بمحاولة تمزيقك اربا بان يدفعك للاصطدام ببارجة !

ونتيجة لهذا التخبط وقعنا فى طريق عدة قوارب اخرى وبالطبع قرع اسماعنا عدد لاباس به من الألفاظ البذيئة ..

انى لا أعرف سببا لهذا ، ولكن دائما ماتكون الحالة النفسية لراكب النهر سيئة جدا . ان القليل من المشاكل التى تواجهك وانت على البر ولا تلقى اليها بالا قـــد تجعلك فى منتهى الغضب عندما تكون فى قارب على صفحة النهر .. فانا مثلا اذا تصرف اى من جورج

او هاريس بحماقة أمامي ونحن على البر ، غالبا ما أقابل تصرفهما بابتسامة هادئة · ولكنهما عندما يتصرفان بطريقة غبية ونحن على صفحة النهر . فانني أواجههم بأقذع الألفاظ · وعندما يعترض طريقي أحد القوارب أشعر برغبة فى أن أحمل مجدافى وأقتل به كل من بهذا القارب من أشخاص !

ان هواء النهر غريب على الحالة النفسية يجعل ـ فيما أعتقد ـ أكثر الناس هدوءا ووداعة على البر . يصبحون أكثر الناس تعطشا للدماء عندما يصبحون فى قارب فوق صفحة النهر ··

الفصل الثامن عشر

القوارب النهريـــة

قضينا يومين سعيدين جدا فى أوكســـفورد وان كانت شـــوارع المدينة مـــلآنه بالكـلاب · حتى أن مونتموريني خاض احدى عشـــرة معركة فى اليوم الاول · وارتفع عدد المشاجرات الى أربع عشرة فى اليوم الثانى ، حتى ظننا أن روحه ستصعد الى بارئها · ·

يعتبر استئجار قارب والتجديف به عبر النهر فى أوكسفورد من الرياضيات المحببة حتى بين أكثر الناس ضعفا وكسلا ·· وبالطبع هى النزهة المفضلة لــدى هؤلاء الذين يتمتعون بقدر عال من النشاط والحيوية ·

وليس من المستحب دائما أن تجدف مع التيار ، فقد تلقى قدرا أكبر من الرضا لو أنك جدفت ضـــد التيار ، واستطعت رغم ذلك أن تشق طريقك فى النهر هذا على الأقل ماكنت أشعر به وأنا أراقب جورج وهاريس وهما يجاهدان فى التجديف ضد التيار بينما أنا أمسك الدفة لهما ٠

ولهؤلاء الذين يفكرون فى جعل أكســفورد نقطة البداية لرحلتهم النهرية أقول :«خذوا قواربكم الخاصة!» فصحيح أن القوارب التى تؤجر لهذا الغرض فيما فوق مدينة « مارلو » تعتبر ـ اجمالا ـ قوارب جيدة ٠ وهى محكمة الحماية ضد الماء ، ومادامت تستخدم بعناية فنادرا ماتنكسر أو تغرق ٠٠

كل هذا صحيح وجيد ، الا أنها ليســت جميلة المظهر وغير مزخرفة ٠أن القوارب التى تؤجر فى هذه المنطقة ليست من النوع الذى يمكنك أن تزهو بنفســك فيه أو يشعرك بأهميتك ٠٠ أنها تضع حدا فى الحال لأى شعور من هذا القبيل ٠ وأعتقد أن هذه هى الفضيلة الاساسية بل الوحيدة فيها ٠

ان الرجل فى القارب المستاجر يفرض عليه أن يكون متواضعا وخجولا · فهو يسير بقاربه على الجانب المظلل تحت الأشجار · كما يجب أن يقطع معظم سفره فى الساعات الأولى من الصباح ، أو فى الســـاعات الاخيرة من الليل ، عندما لايكون هناك كثير من الناس لينظروا اليه ·· وان صادف هذا الرجل أحدا يعرفــه فانه سرعان مايتجه نحو الشــاطىء ويختبـــىء خلف الأشجار ·· !

اننى أذكر انى كنت واحدا فى جمـــاعة قـــررت استئجار قارب نهرى ـ ذات صيف ـ لتمضية بضعة أيام فى نزهة نهرية ·· ولم يكن أحد منا قد رأى قاربا من القوارب النهرية التى تؤجر من قبل ، ولم نتعرف عليها عندما شاهدناها لأول مرة ·

كنا قد أرسلنا برقية بأسمائنا نطلب قاربا للايجار ، وعندما توجهنا حاملين حقائبنا الى مرسى القوارب ، وأعلنا عن أسمائنا قال لنا صاحب المرسى :

ـ أوه ، أجل أنتم الجماعة التى أرسلت لى تطلب

قاربا · كل شيء جاهز وعلى مايرام ·· ياجيم أحضر لهم « فخر التيمس » !

غاب الصبى عن ابصارنا ثم عاد بعد خمس دقائق وهو يجاهد فى قطعة خشبية قديمة بدت وكأنها انتزعت من مكانها فى التو ، وبدت وكأنهـــا انتزعت باهمال فأصيب باصابات لاداعى لها ·

كانت اول فكرة خطرت ببالى هى ان هذا الشيء هو أحد الآثار الرومانية ، اثار ماذا ؟ لا أعلم ·· ربما كانت ما تبقى من تابوت قديم · فالمنطقة المحيطة بأعمال نهر التيمس غنية بالآثار الرومانية · ولهذا بدت لـــى الفكرة معقولة وقوية الاحتمال ·· ولكن أحد أصحاب العقول المستنيرة فى جماعتنا ـ وكان عالما ـ اعترض على الفكرة وقال انه يبدو بجلاء حتى لذوى الذكاء المحدود ، أن هذا الشيء الذى عثر عليه الصبى كان بقايا حوت ·· واشار الى عدة أشياء موجودة فى هذه البقايا تؤكد انها لحوت !!

ولكى نضع حد لهذا الجدل سألنا الصبى وقلنا له :

ـ لا تخف ٠٠ فقط أخبرنا بالحقيقة هل هذه بقايا عظام حوت أم أنها أثار تابوت رومانى قديم ؟ !

فأجابنا الصبى بأن هذا الشىء انمـــا هو « فخر التيمس » ٠

وفى البداية اعتقدنا أن هذه الاجابة كانت مداعبة من الصبى لنا فضحكنا ونفحه أحدنا بنسين مكافأة على ظرفه ٠٠ ولكنه عندما أصر على تكرار النكتة طويلا بدأنا نضيق به وقال له قبطاننا بحدة :

ـ تعال هنا يابنى ٠٠ تعال ! ٠٠ كفانا ماسمعنا من هراء ، خذ هذا البرميل بعيدا واحضـــر لنا قاربا حقيقيا !

وجاءنا صانع القوارب بنفسه وقال لنـــا كلمتـه كخبير ، فقال أن هذا الشىء كان بالفعل قاربا ٠٠ بل هو فى الحقيقة القارب الذى تم اختياره ليحملنا فى رحلتنا عبر النهر ٠

واعترضنا على هذا بشدة وقلنا له أما كان من الممكن على الأقل أن تغسله أو تطليه بلون أبيض لتدارى

قبح منظره · وحتى نستطيع أن نفرق بينه وبين قطعة من حطام سفينة ·· لكن الرجل لم يكن يرى فيه أى عيب ، بل انه ضاق بتعليقاتنا هذه وقال انه قد تخير لنا افضل قارب يمكنه تقديمه ·· وكان يتصور أننا يجب أن نكون اكثر شكرا وامتنانا له من ذلك · واضاف ان « فخر التيمس » هذا قد استخدم وهو على حالته هذه طوال الأربعين سنة الماضية ولم يحدث ـ على حـد علمه ـ ان اشتكى منه انسان · وهو صانع القوارب ـ لايدرى لماذا يجب ان نكون نحن أول من يفعل ذلك ··

ولم نجادله اكثر من هذا ·

وبدأنا فاحكمنا تثبيت ـ هذا الشىء الذى يدعى قاربا ـ بواسطة قطع من السلك ولصقنا ورق الحائط على الأجزاء السيئة المظهر منه ، ثم تلونا صـلاتنا وخطونا داخله ··

لقد كلفنا استئجار هذا القارب لستة ايام خمسة وثلاثين شلنا بينما كان يمكننا ان نشتريه من أى فرد بأربعة شلنات فقط !!

الفصل التاسع عشر

رحلة العودة

تغير الطقس فجأة في اليوم الثالث .. وبينما كنا نشرع في رحلة العودة من أوكسفورد كانت السماء تمطر بغزارة .

ان النهر ليصبح مجرى ذهبيا ساحرا حينما تلمع أشعة الشمس الساطعة على أمواجه المتراقصة .. وعندما تلون جذوع الأشجار الرمادية بلون الذهب .. وعندما تضع الشمس ابتسامتها الدافئة على وجه الغابات المظلمة الباردة وتلون الجدران والقناطر بلون الفضة .. وتضفي بريقها على كل قرية صغيرة ، وتبعث

الجمال في كل ممر أو حقل صغير ·· وعندما تشرق الشمس مرحة فوق أشرعة المراكب وتحيل الهواء الى نسمات ناعمة حنون ·

ولكن النهر يصير مكانا حزينا خاليا من البهجة حينما تكسوه الظلمة والبرودة ·· وعندما ينهمر المطر بلا توقف فوق امواجه الداكنة البطيئة بصوت ضعيف كأنه صوت امرأة تبكي في حجرة مظلمة مجهولة ·· بينما الغابات كلها سوداء صامتة يلفها الحزن ·· والأشجار تقف على ضفة النهر وكأنها اشباح ·· أشباح خرساء ذات عيون وقحة كأنها من صنع الشيطان !

ان ضوء الشمس هو دماء الحياة تسرى في شرايين الطبيعة ·· بل ان أمنا الأرض لترمقنا بعيون غاب بريقها وانطفأ نور الحياة فيها ان هي فقدت اشعة الشمس ·· وهي ـ الأرض ـ تسبغ علينا حزنها فنصير بدورنا محزونين ·· وهي لاتبدو مهتمة بنا أو حتى تعرفنا ـ نحن ابناءها ـ فتصير كأرملة رحل عنها زوجها الذي تحبه ·· يلمس أطفالها يدها ويتطلعون الى عيونها لكنهم يعودون بلا ابتسامة منها ·

جدفنا طوال هذا اليوم تحت الأمطـــار وياله من مجهود تعس ·· فى البداية صـــممنا على أن نتمتــع بالتجديف تحت المطر · وقلنا أنه تغيير واننا كنا نود ان نرى النهر فى كل حالاته ، بالاضافة الى اننا لــم نكن نتوقع أو نحب أن تظل الشمس مشرقة فى كل أيام الرحلة وقلنا : ان كل شـــىء فى الطبيعة جميل حتى دموعها !!

وبالفعل حاولنا أن نستمتع بالعمل فى هذا الطقس ـ أنا وهاريس ـ لبضعة ساعات ·· بل اننا أخذنا نغنى أغنية عن حياة الرحـــالة وكيف كانت هذه الحياة ـ المفتوحة على العواصف والامطـــار بنفس القدر الذى تحيا فيه أشعة الشمس الدافئة ـ كيف كانت جميلة ومثيرة ·· وكيف أن الرحالة كان يستمتع بهطول المطر وكم منحه هذا المطر من خير ، وكيف كان يضحك من هؤلاء الناس الذين لايحبون الأمطار ·· أما جورج فقد واجه الموقف بجدية أكثر فأسرع يمســـك بمظلته ويفتحها لتقيه بعض الشىء من المطر المتساقط ·

وضعنا على القارب غطاءه قبل الغداء ، واحتفظنا

به هكذا طوال عصر اليوم تاركين فتحة صــغيرة عند مقدمة القارب حتى يستطيع أحدنا أن يجدف منها ويرقب الطريق · وقطعنا ونحن على هذه الحال مسافة تسعة أميال قبل أن نتوقف عند حلول المساء ·

انى لا أستطيع ان أؤكد ـ بأمانة ـ أننا قضــــينا أمسية سعيدة ·· فالامطار كانت تنسكب بلا توقف وكل شيء في القارب صار مبتلا · ولم يكن العشاء طيبا ·· فاللحم البارد لايكون شهيا عندما لاتكون جائعا ·· وأحسسنا بأننا كنا نود لو تناولنا أكلة دافئة في مطعم أنيق ، حتى أن هاريس ألقى بقطعة اللحم البارد الى مونتموريسى ، الذى شعر باهانة بالغة من جراء هذه الفعلة فترك قطعة اللحم في كبرياء وتركنا وجلس وحيدا عند طرف القارب الآخر ·

قضينا ساعة ونصف بعد العشاء نلعب الورق الى أن شعرنا بالملل ثم خلطنا كأس شراب لكل منا وجلسنا نتحدث ·· حكى لنا جورج عن رجل كان يعرفه ، كان يعبر النهر منذ عامين وحدث أن نام فى الخلاء فى قارب

رطب فى ليلة شبيهة بليلتنا هذه تماما · فاصيب بحمى ولم يكن هناك مايمكن ان ينقذه منها فمات متأثرا بآلامه العظيمة ، بعد مرض استمر عشرة أيام ·· وأضاف جورج أن الرجل كان فى ريعان الشباب وانه كان يستعد للزواج ·· واخيرا قال جورج ان هذا الحدث كان من اكثر الأشياء حزنا فى حياته وانه لن ينساه طول حياته الى ان يموت ويفارق هذا العالم ·

وذكرت تلكم القصة الحزينة هاريس بصديق من اصدقائه كان جنديا ·· نام فى الخلاء تحت غطاء فى ليلة مطيرة فى (آلدرشوت) ·· ليلة شبيهة بليلتنا هذه تماما ·· قال هاريس :

ـ ·· واستيقظ صديقى فى الصباح وقد تيبست عظامه حتى أنه لم يعد يستطيع ان يمشى مشية صحيحة بعد هذه الليلة ·

واضاف هاريس أنه سوف يقدمنا الى صديقه هذا عندما نعود الى لندن ولكم ستدمى قلوبنا لرؤية هذا الشاب المسكين وهو لايمشى بطريقة صحيحة !

وبالطبع قادنا هذا الكلام الى بعض الأحـــاديث الطريفة عن متاعب الاصابة بالبرد · فقال هاريس انها ستكون معضلة كبيرة لو أن احدنا أصيب بالبرد فنحن فى بقعة بعيدة عن اى طبيب ·

وبعد هذه الأحاديث شعرنا بحاجة ماسة الى شيء مبهج وظريف ، وفى لحظة ضعف منى اقترحت على جورج أن يخرج آلة البانجو ويسمعنا بعض الأغنيات الهزلية ··

ولم يكن جورج فى حاجة لأى حث فقد أخرج آلته فى الحال وبدأ يغنى لنا أغنيته :

·· « العينان السوداوان الحبيبتان » ··

·· « عينان براقتان جميلتان »

كنت دائما أتصور « العينان السوداوان » أغنيـة هزلية عادية ·· حتى هذا المساء ، ان الحـــزن الذى استطاع جورج أن يستخرجه منها أذهلنى حقا ·

وصارت الرغبة التى تلح علينا ـ انا وهاريس كلما

امعن جورج فى اغنيته هى ان يرتمى كل منا على صدر الآخر وينخرط فى البكاء · ولكننا ـ وبمجهود عظيم ـ حبسنا دموعنا وجلسنا نستمع فى صمت ·

وبعد أن وصل جورج الى المقطع الأخير حاولنا بالم عظيم أن نشعر انفسنا ببعض البهجة ، فملأنا كئوسنا واشتركنا فى الغناء ، فبدأ هاريس بصوت مرتعش وتبعته انا ·

عينان سوداوان حبيبتان

ياللروعة ·· يا للعجب ·· !!

وهنا توقفنا عن الغناء ففى حالتنا البائسة تلك لم يكن من الممكن أن نستمر · كان هاريس يبكى كطفل صغير ، حتى مونتمورينسى اخذ ينبح حتى ظننت ان فكه يكاد يتحطم !

وحيث انه لم يكن ثمة مانفعله فقد قررنا أن ننام ·· وهكذا خلعنا ملابسنا وتكورنا فى قاع القارب لمدة ثلاث او اربع ساعات ، وقد حاولنا استجلاب النوم لكننا

لم نحظ الا بنوم متقطع حتى صارت الساعة الخامسة تماما . وعندها استيقظنا جميعا وتناولنا افطارنا .

وكان اليوم التالى كسابقه ، لم تكف السماء عن ارسال أمطارها وجلسنا ملتفين بمعاطف المطر قابعين تحت غطاء القارب الذى اخذ ينساب فوق صفحة الماء ببطء .

حاول احدنا ـ لا اذكر الآن من كان على وجه التحديد وان كنت اظنه انا شخصيا ـ حاول ان يغنى اغنيات لا معنى لها عن الروح الفنية للطبيعة وعن الاستمتاع بالمطر .. وبالطبع لم يكتب لهذه المحاولة اى نصيب من النجاح .

كان هناك أمر اتفقنا عليه جميعا ومنذ البداية الا وهو ، أنه مهما حدث فسنواصل رحلتنا حتى النهاية مهما كانت تلك النهاية حزينة او مؤلمة .. لقد خرجنا لنستمتع برحلة لمدة اسبوعين على النهر ، ولسوف نقضى الأسبوعين كاملين حتى لو قتلتنا هذه الرحلة فى النهاية .. انها لو فعلت ذلك فستكون نهاية حزينة بالنسبة لأقاربنا ، ولكن لاحيلة لاحد فى هذا ..

وقال هاريس مشجعا :

ـ لم يبق سوى يومين ، ونحن شباب وأقوياء وقد نمر من كل هذا بخير وسلام !

وعندما بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبا .. بدأنا نناقش خطتنا للمساء . ولما كنا قد جاوزنا بلدة « جورينج » بقليل فقد قررنا أن نستمر فى التجديف حتى نصل الى « بانجبورن » حيث نقضى ليلتنا .

وتمتم جورج :

ـ آه .. سنقضى ليلة أخرى سعيدة !

وجلسنا معا نفكر فى تلك الليلة ، كان يجب أن نصل بانجبورن فى الخامسة ، ثم ننتهى من تناول وجبتنا المسائية فى السادسة والنصف ـ مثلا ـ وبعد هذا يمكننا أن نتمشى تحت الأمطار حتى موعد النوم أو أن نجلس فى حانة صغيرة ذات ضوء شاحب دون أن نفعل شيئا على الاطلاق !

وفى اللحظة التالية ـ وعلى حين غرة ـ اندفع جورج صائحا وهو يرمق القارب بغضب وغيظ :

ـ اسمعوا ، اذا لم نكن قد عقدنا العزم بعد على الموت في هذا التابوت البارد ·· فانه يمكننا اللحاق بقطار لندن الذى يتحرك بعد الخامسة من محطة (بانجبورن) حيث يمكننا أن نصل لندن في جو مريح ودافىء ، ونقضى أمسيتنا في مسرح « الهمبرا » ثم نتناول عشاء خفيفا قبل أن نعود للبيت !

ولم يفتح أى منا فمه بعد هذا ·· وصار كل منا يرى افكاره غير البريئة وقد انعكست على وجهى رفيقيه ·· وفي صمت أخرجنا حقائبنا من القارب وفحصناها ونظرنا في كل اتجاه على النهر لنتأكد من ان احدا لايرانا ولم يكن هناك احد غيرنا !

بعد هذا بعشرين دقيقة ، كان هناك ثلاثة اشباح يزحفون في الظلام يتبعهم كلبهم مطأطئي الرؤوس خجلا وهم خارجون من القارب في طريقهم الى محطة القطار وكانوا يرتدون احذية جلدية سوداء متسخة ، وكانت ستراتهم وسراويلهم في غاية القذارة ·· وكانت معاطفهم رثة ممزقة ·· ويحمل كل منهم مظلة في يده !

لم تكن لدينا الشـــجاعة لنقول الحقيقـة لحارس القوارب في مرسى بانجبورن ، فكذبنا عليه وتركنا لـه القارب بكل محتوياته تحت مسئوليته قائلين اننا نريده جاهزا للابحار فى تمام التاسعة صباحا ، واذا ·· اذا - هكذا قلنا - اذا حدث اى شيء يمنع مجيئنا فى الصباح فسنبعث له رسالة بهذا ··

وصلنا لندن في السابعة مساء . وعلى الفور دلفنا الى مطعم صغير - كنت اعرفه - حيث تناولنا وجبـة خفيفة ثم تركنا مونتمورينسى هناك بعد ان طلبنا اعداد عشاء لنا فى العاشرة والنصف ثم خرجنا فى طريقنا الى مسرح الهامبرا ··

وعند المسرح اكتشفنا اننا محط الأنظار ·· في البداية ظن الرجل القابع في مكتب التذاكر اننا (السحرة العالميون القادمون من جبال الهمالايا) ·· وقال لنا اننا يجب أن ندخل من باب الممثلين · واضاف : اننا قد تأخرنا عن موعدنا نصف ساعة ·· الا اننا تمكنا أخيرا من اقناعه انه قد اخطأ فى ظنه واننا لسنا سحرة،

فاخذ منـــا النقود واعطانـــا التذاكر وتركنا نمر من الباب ٠٠

وفي داخل قاعة المسرح نلنا مزيدا من النجاح ٠ فقد كانت وجوهنا التى لوحتهـــا الشمس وملابســـنا الغريبة محط نظرات الاعجاب من الحاضرين ٠ اوه ٠٠ كم كانت لحظات مجيدة !

غادرنا المسرح مبكرين واتخذنا طريقنا الى المطعم حيث كان العشاء معدا فى انتظارنا ٠ وقد استمتعت بهذا العشاء كثيرا ٠٠ فطوال عشرة ايام ظللنا نحيا على اللحم البارد والكعك والخبز الجاف والمربى ٠٠ اما الآن فرائحة النبيذ ٠٠ والصلصة الفرنســـية ورؤيـــة الملابس النظيفة وارغفة الخبز الساخنة الطويلة ٠٠ كل هذه الأشـــياء كانت تطـــرق باب معداتنا وكانها زوار مستحبون ٠

اكلنا وشربنا فى صمت حتى حانت اللحظة التى عندما مددنا ارجلنا تحت المنضدة فى استرخاء

واخيرا سكت صوت الشوك والسكاكين وتنفسنا فى شعور بالراحة والسعادة ٠٠

بعد هذا انحنى هاريس ـ الذى كان يجلس بجوار النافذة ـ واطل على الشارع من جانب الستارة .. كان الشارع يبدو مظلما بينما لهب المصابيح الزيتية يتراقص مع الريح .. والمطر يتساقط فى البرك التى صنعتها المياه من قبل .. والقليل من الناس المبتلين بماء المطر يهرولون وقد انكمشوا تحت مظلاتهم .. **فقال هاريس وهو يمد يده ليأخذ كاسه :**

ـ لقد استمتعنا برحلة طيبة ياصحاب .. وانى لأقدم عميق شكرى لأبينا العجوز « نهر التيمس » .. الا انى وفى نفس الوقت اعتقد اننا قد فعلنا الصواب بتخلينا عن تكملة الرحلة فى الوقت المناسب .. فهيا .. وهلموا نشرب نخب ثلاثة رجال يجلسون بعيدا عن القارب !

وقف مونتموريِنسى على قدميه الخلفيتين ونظر من خلال النافذة الى الليل المطير ثم اطلق صيحة حاسمة قصيرة تعلن موافقته الحارة على هذا النخب .. !!

الفهرس

رقم الايداع ١٠٥٦٠ / ٩٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 01 - 5444 - X